

أَبُو الْعِلَاءِ الْمَعْرِي

تَأَلِيفُ

الدُّكْتُورَةُ عَائِشَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
بِنْتُ الشَّاطِئِ

المَوْسَسَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ
لِلتَّأْلِيفِ وَالْأَنْبَاءِ وَالنَّشْرِ
الدَّارُ الْمِصْرِيَّةُ لِلتَّأْلِيفِ وَالتَّعْجِيلِ

هذه الترجمة

لم يكن من الهين علىّ ، أن أجمع حياة أبى العلاء فى كتاب واحد . فحياته طويلة حافلة خصبة ، وكان الرأى عندنا ألا تؤرخ جملة ، قبل أن نفرغ من بحوث مفردة لكل جانب منها . وقبل ذلك ، يجب أن يكون تراثه بين أيدينا محققا ، لأنه الذى يعطينا مادة درسه ، ويضىء لنا فهم شخصيته .

ونحن لما نفرغ من نشر نصوص محققة لكل ما وصل إلينا من تراث أبى العلاء ، كما لم نفرغ بعد من دراسة جوانب شخصيته الرحبة على وجه التخصص ، ومن ثم كنت أفضل أن أرجىء تقديم هذا الكتاب ، لولا أنى كرهت ألا ألبى الدعوة الى كتابة ترجمة موجزة لأبى العلاء ، تقدمه الى جمهرة قراء العربية ، بعد أن حجب عنهم طويلا ، أو صور لهم على غير حقيقته التى تقدمها لنا آثاره .

وأنا أكتبها اليوم ، بعد طول صعبة لأبى العلاء فى تراثه ، وتخصص فى تحقيقه ودراسته ، واذا كانت طبيعة المجال فى مثل هذه الترجمة ، لا تسمح باعطاء كل مصادر المادة ومراجعها ، ولا تتسع لتفصيل المقدمات التى انتهت بنا الى رأى أو نتيجة ، فانى لأرجو أن يطمئن القارئ الى أن ما تقدمه اليه من هذه الترجمة الموجزة ، انما يعتمد أصالة على ما تم لنا من درس

لأبى العلاء ، واستقراء لمصادر هذا الدرس ، من آثاره وأقوال مؤرخيه .

وبعد فلست أرى أن أتعجل فأقدم أبا العلاء الى القراء في كلمات من هذه المقدمة ، على نحو ما يفعل كثير من كتاب التراجم . بل أؤثر أن أدع أبا العلاء يقدم نفسه في هذه الترجمة التى اتخذناه فيها دليل الرحلة . ذلك لأنه بين أدباء العريفة ، يمكن أن يقال انه الوحيد الذى نستطيع تنسيق أدبه فى صورة مذكرات لحياته ، وقد حرصت أشد الحرص ، على أن أترك له مهمة الحديث عن نفسه منذ وعى الى أن رحل عن الدنيا ، وأن أقل الى القراء صوته فى كل خطوة من رحلة الحياة ، دليلا أميناً صادقاً .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطىء)

مصر الجديدة { رمضان : ١٣٨٤
يناير : ١٩٦٥ }

الفصل الأول

قبل المولد الورثة

- أجداد وأبائ
- تنوخ ، بنو الساطع ، آل سليمان
- أخوال
- بنو ببيكة
- الوالد ، الأم ، الإخوة

أجداد وآباء

أتمشى القوافى تحت غير لوائنا
ونحن على قوّالها أمراء
وما سلبتنا العزّ قط قبيلة
ولا بات منا فيهم أسراء
ولا سار في عرض السماوة بارق
وليس له من قومنا خفراء
(سقط الزند)

خرج الى الدنيا والشمس غاربة والنهار مدبر ، وكانت ليلته الأولى على الأرض من ليالى المحاق ، ولولا مولده فى بيت علم وفضل ، لطويت تلك الليلة فى غيابة الزمن ، ولضاعت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذى قدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت اليه تاريخنا الأدبى فيسجل أنفاسه منذ شب عن الطوق . ذلك أنه حين ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليال بقرين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، لم يكن فى حساب التاريخ ذلك الأديب الأكبر الموعود بالمجد ، ولا كان لأحد من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد ، سوف يغدو أشهر من ينسب الى « معرة النعمان » فلا تذكر فى كتب البلدان والرحلات والتاريخ الا مقترنة

باسمه ومعرفة به ، مع أنها لم تكن مجهولة قبل مولده ، فقد ذكرها « البلاذرى » فى (فتوح البلدان) « وابن حوقل » — من جغرافىي القرن الرابع — فى (المسالك والممالك) « والواقدى » فى (فتوح الشام) .

كل ما فى أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجد معرق فى الفضل ، وآباء كرام منجيين ، فيهم ميراث بنى الساطع وعز تنوخ .

* * *

وتنوخ قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جد العرب العاربة ، ويمضى النسابون بها الى بعيد ، فيصلونها بهود بن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانت تنوخ بطونا من تيم اللات القضاعى القحطانى ، سميت بذلك لأنها تنخت من قديم بالشام ، أى أقامت ورسخت . ويقال انهم الذين اختطوا الحيرة وكانوا أول من عمرها ونزلها ، وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة ، وماضيهم حافل بالعزة والقوة والاباء ، وكانت لهم فى الجاهلية وقائع ظافرة مع الفرس ، ويشهد المؤرخون لتنوخ بأنها « كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا » .

وكذلك كانوا فى الاسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرهم فى جند الفتوح عددا ، وقد أبلوا فى قتال الفرس بلاء مشهودا حمية للعرب ، وان كانوا على دين النصرانية . وفى تاريخ

الفتوح أنهم أبوا — مع ذلك البلاء في قتال الفرس — أن يؤدوا الجزية ، أنفة واعتزازا بآسهم وبلائهم ، فلما سار « عمر » رضى الله عنه الى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم الا بالاسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأبوا عليه وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية . فأبى « عمر » ثم أجابهم الى أن يأخذها على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبى العلاء ، وأسلم بعضهم في أيام أبى عبيدة بن الجراح ، وبعضهم في أيام المهدي بن المنصور أبى جعفر العباسي . أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا الى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسان .

* * *

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوت المعرة ، أعز بطون تنوخ ، « وهم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والفضل » واسم الساطع : « النعمان بن عدى » قيل انه لقب بالساطع لجماله وبهائه ، وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت تنوخ على أيامه بالدواسر ، لما ظهر من شدتهم وبأسهم .

وبعض المؤرخين يقولون ان « معرة النعمان » تنسب اليه ، وآخرون يذهبون الى أنها منسوبة الى « النعمان بن بشير الأنصاري » وكان واليا على حمص وقنسرين في عهد معاوية

وابنه يزيد ، فخرج ابن للنعمان في رحلة صيد الى أجمة كانت موضع المعرة ، فافترسه سبع فجزع عليه أبوه النعمان « وبني له منزلا عند قبره ، فبنى الناس لبنائه وعمرت البلدة ونسبت اليه .

* * *

وبيت أبي العلاء « من بني سليمان بن داود بن المطهر ، سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان » وسليمان هو الجد الخامس لأبي العلاء ، ولى حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة ، ثم تولاه من بعده ولده أبو بكر محمد ، جد والد أبي العلاء « وفيه يقول أبو بكر الصنوبري :

بأبي يا ابن سليمان لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبانا لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أضحى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا وفراتا وبليخا
واجدا منك متى استصرخ للمجد صريخا
في زمان غادر الهمات في الناس مسوخا

وخلفه على قضاء المعرة بعد وفاته سنة ٣٣١ هـ ، ولده أبو الحسن سليمان بن محمد ، ثم تولى معه قضاء حمص أيضا ، وكان محدثا فاضلا شاعرا ، ومن شعره في الناعورة :

وباكية على النهر تثن ودمعها يجرى
تذكرنى بأجبابى وحالى ليلة النفر
وأذرى مثل ما تذرى وأسعدها وما تدرى
على فقدى لأجبابى وما قد فات من عمرى
فما هى فيه مشهور وما أنا فيه فى السر
كأنى فى بسيط الأر ض بين الناس فى قبر

والقاضى أبو الحسن سليمان ، هو جد أبى العلاء . توفى
بحمص وهو على قضائها فى جمادى الأولى سنة ٣٧٧ هـ
وأبو العلاء فى الرابعة عشرة من عمره .

وجدة أبى العلاء لأبيه : أم سلمة ، بنت أبى سعيد الحسن
ابن اسحاق بن بلبل المعرى . ولى أبوها قضاء المعرة ، وكانت
تروى الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العلاء سن
الطلب . وعدتها « ابن العديم » فى (كتاب الانصاف والتحرى)
بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث .

فى هذا البيت الكريم الماجد ولد أبو العلاء ، ومن تلك
السلالة المعركة فى الفضل والعزة والعلم والأدب ، تلقى ميراثه .
وقد كان بعد أن شبّ ووعى بادی الاعتزاز بقومه وآله ، حريصا
على تتبع مناقبهم ومفاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم
شعر نابض بالحب والفخر والولاء ، منه قوله فى قبيلته :

أتمشى القوافى تحت غير لوائنا

ونحن على قواها أمراء

وأى عظيم راب أهل بلادنا
فانا على تغييره قدراء
وما سلبتنا العزّ قط قبيلة
ولا بات منا فيهم أسراء
ولا سار في عرض السماوة بارق
وليس له من قومنا خفراء

أُخْواله

كَأَن بَنِي سَبِيكَةَ فَوْق طَيْرٍ يَجُوبُونَ الْغَوَائِرَ وَالنَّجَادَا
(سَقَطَ الزُّنْدُ)

أَمَّا خُتُولَتُهُ فَفِي بَيْتٍ مَعْرُوفٍ مِنْ بَيُوتَاتِ حَلَبٍ . جَدُّهُ لِأُمِّهِ :
مُحَمَّدُ بْنُ سَبِيكَةَ ، وَخَالَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَلَى وَأَبُو طَاهِرٍ الْمُشْرِفُ ^(١) .
وكَانَتْ صِلَتُهُ بِهِمَا وَثِيقَةً ، وَلَهُمَا فِي تَرَاثِهِ ذِكْرٌ خَاصٌّ « يَنْبُضُ
بِالْمُودَةِ وَالْأَكْبَارِ . وَنَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ أَبَا الْقَاسِمِ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ التَّجَارِ ،
أَمَّا أَبُو طَاهِرٍ فَكَانَ مِنْ شَيْوخِ الْعَرَبِيَّةِ .

فَفِي دِيْوَانِ سَقَطِ الزُّنْدِ ، قَصِيدَةٌ مَطْوُوعَةٌ أُرْسِلَتْهَا إِلَى خَالِهِ
أَبِي الْقَاسِمِ عَلَى ، وَكَانَ قَدْ سَافَرَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَأَطَالَ الْغَيْبَةَ ، وَمِمَّا
قَالَ فِيهَا :

تَفْدِيكَ النُّفُوسَ وَلَا تَفَادِي

فَأَدْنِ الْوَصْلَ أَوْ أَطْلِ الْبَعَادَا

(١) ذَهَبَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ سَلِيمُ الْجَنْدِيُّ ، فِي كِتَابِهِ (الْجَامِعُ)
إِلَى أَنَّ أَبَا طَاهِرٍ هُوَ ابْنُ خَالِ أَبِي الْعَلَاءِ « عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ » وَكَانَ
أَهْمُ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ ، رِسَالَةً كَتَبَهَا أَبُو الْعَلَاءِ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ يَعْزِيهِ
فِي أَخٍ لَهُ اسْمُهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَالَ فِيهَا : « وَاللَّهِ يَبْقِيهِ وَلَا يَشْقِيهِ ،
وَيُرِيهِ فِي مَوْلَايَ أَبِي طَاهِرٍ وَوَلَدِهِ مَا رَأَاهُ فِي وَلَدِهِ سَعْدٍ وَالْعَشِيرَةِ .. »
وَلَمْ نَظْمِثْنِ إِلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ مَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَعْزَى
بِالْأَخِ الْحَيِّ عَنِ الْإِخِ الْفَقِيدِ .

أرانا يا عليّ وان أقمنا
نشأطرك الصباة والسهادا
ولولا أن يظن بنا غلو
لزدنا في المقال من استزادا
وقيل : أفاد بالأسفار مالا
فقلنا : هل أفاد بها فؤادا ؟
وهل هانت عزائمه ولانت
فقد كانت عرائكها شدادا
إذا سارتك شهب الليل قالت
أعان الله أبعدا مرادا
وان جارتك هوج الريح كانت
أكل ركائبا وأقل زادا
علام هجرت شرق الأرض حتى
أتيت الغرب تختبر العبادا
وان تجد الديار كما أراد الـ
غريب ، فما الصديق كما أرادا
إذا الشعرى اليمانية استتارت
فجدد للشامية الودادا
ظلعت لتستفيد أخا وفيا
وضيعت القديم المستفادا
فراسلك التنصح والقوافي
وغيرك من نعلمه السدادا

والى أبى القاسم على ، كتب أبو العلاء رسالته اثر انسحابه
من بغداد ومن الدنيا ، فبكى فيها أمه التى ماتت قبل وصوله ،
ونفض لدى خاله ما كان يثقله من همّ ويثوده من قهر وشجن ،
واعتذر اليه عن عدم مروره بحلب ، فى طريق العودة من بغداد ،
اعتذار مقصر محزون ...

وذكر خاله أبا طاهر ، فأثنى عليه أطيب الثناء ..
وختم رسالته بتحية حارة الى خاليه أبى القاسم وأبى طاهر
فقال :

« وأنا أحمل الى مولاي ، أدام الله عزه ، والى مولاي
أبى طاهر عضدنى الله ببقائه ، سلاما له نضرة الألاء وصفاء الماء
وعذوبة الأرى وتتابع القطر وخلود النجوم وأرج العرار وتآلق
الوميض »

ولدينا كذلك من مجموع رسائل أبى العلاء ، رسالة أخرى
كتبها وهو ببغداد ، الى خاله الشيخ أبى طاهر المشرف ، ومنها
نعلم أنه كان مشتغلا بأمر (شرح السيرافى) لكتاب سيبويه فى
النحو ، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبى العلاء مراسلات سابقة ،
حول نسخ من شرح السيرافى بخطوط مختلفة ، أراد أن يعرف
رأى أبى العلاء فى كل منها .

والرسالة تستهل بالاعراب عن شوق عميق لخاله ، وأسف
لبعده ، وتذكر لماضى أوقاته معه « تذكر الفطيم ثدى الوالدة »
وفزع الى نجدته ، وثقة بمكارمه ، وشكر على أياديه يتجدد مع
النفس ثم قال :

« وفي هذا اليوم وصل كتابه فسررت به سرور الظمآن ورد
نميرا والساهر صادف سميرا . وكان ما ضمنه من ذكر سلامته ،
بشرى لها تخف الأحلام خفة القائل ولا يلام : (يا بشرى هذا
غلام) والله يمن باجتماع ليس بعده من ازماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحصلة ، وهو أدام الله
عزه ، الكريم المتكرم وأنا المثقل المبرم ... وقد كنت قلت في
بعض كتبي الى سيدى : ان كانت الخطوط مختلفة والأبواب
مؤتلفة فلا بأس ... ما عدا خط على بن عيسى — الربعى —
فانه رجل اتكل على مافى صدره فتهاون باحكام سطره . وانما
رجوت بيركته — يعنى خاله — أن يرتفق أناس كما قال الله
تعالى : (وشروه بثمان بخرس دراهم معدودة وكانوا فيه من
الزاهدين)

« وأنا والجماعة نهدي الى سيدى الشيخ والى جميع
أصدقائه ، سلاما تأرج الكتب بحمله .. وحسبى الله »

* * *

وفى أخواله يقول :

كأن بنى سبيكة فوق طير	يجوبون الغوائر والنجادا
أبالاسكندر الملك اقتديتم	فما تضعون فى بلد وسادا

الوالد

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب، والذيل والردن
فيا ليت شعري هل يخفُّ وقاره
إذا صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الرويَّ مبادرا
مع الناس ، أم يأبى الزحام فيستأنى
(سقط الزند)

أما أسرة الوليد — ونستعمل الأسرة بدلالاتها المألوفة في عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء في رسالة الغفران وفي سقط الزند — فوالده عبد الله بن سليمان ، ولد سنة ٣٣٠ هـ وجده أبو بكر محمد بن سليمان على قضاء المعرة . وبعد عام واحد من مولد « عبد الله » ، توفي جده فخلفه أبوه على قضاء المعرة ، وولى معه قضاء حمص . وكانت لعبد الله أخت تزوجت في آل المذهب المعري ، وولدها أبو صالح محمد ابن المذهب ، من لدات أبي العلاء ورفاقه في الدرس .

روى عبد الله الحديث عن جده وأبيه ، وعن عدد من شيوخ الشام في عصره ، منهم الحافظ أبو بكر السبيعي نزيل حلب ،

وأبو عبد الله الحسين بن خالويه امام اللغة بالشام ، وعبد الله ابن محمد البغوى .

ويذكر عبد الله ، فى تاريخ المعرة وحلب : « فاضلا لغويا أدبيا شاعرا » .

وقد أصهر الى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج « بنت محمد بن سبيكة » فى وقت لم يحدده الاخباريون ، وان كنا نستطيع أن نطمئن الى أن هذا الزواج كان حوالى عام ٣٥٠ هـ أو بعدها بقليل ، حيث تقرأ فى أخبار الأسرة ، أن أبا المجد محمد ، الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وأبوه فى الخامسة والعشرين من عمره . ومضت ثمانى سنوات قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما أحمد أبى العلاء سنة ٣٦٣ هـ . ثم ولد أخوه الأصغر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، سنة ٣٧١ هـ .

* * *

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأسرة أو مؤرخو أبى العلاء ، عن الحياة الخاصة للأسرة ، مما يمكن أن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبى العلاء من الزواج والمرأة ، الى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسى والمعنوى للبيت الذى تنفس فيه ، وعاطفة أبويه أحدهما نحو الآخر .

وثلثت مع ذلك بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله ، نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه مكانة خاصة ، وتشده اليها عاطفة قوية معلنة ، فلما ماتت حزن

لفراقها حزنا شديدا ، بحيث ودّ لو أنه كان الميت ، وكانت هي
التي تتقبل العزاء فيه :

مولاكِ يا مولاة مولاها على

حال تسر عدوه ، وتضربه

ويودّه لو كنتِ أنت مكانه

في الزائرين ، وأن قبرك قبره

ويشهد نص آخر من شعره ، أنه كان مشبوب العاطفة
مرهف المزاج رقيق القلب ، متفنا في صنعة الشعر :

سمعتم بأجور من ظالم أعلّ الفؤاد وما عاده

وقد كان واعدني مرة فأخلف يا قوم ميعاده

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا هذا الذي ذكروه عن علمه
وفضله ، ورووا له من شعر ينم عن رقة قلبه وحرارة عواطفه ،
فنستطيع أن نميزها في حديث ولده أبي العلاء عنه . وأبو العلاء
لم يتحدث عنه الا في مراثية واحدة ، تفيض بالاكبار والاجلال ،
وتمثله لنا تقى الضمير واليد واللسان ، مهيبا وقورا يتحاشى
الزحام :

أبى حكمت فيه الليالى ولم تزل

رماح المنايا قادرات على الطعن

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى

وسهد المنى ، والجيب والذيل والردن

فيا ليت شعري هل يخف وقاره

إذا صار أحدٌ في القيامة كالعين

وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى
أمر بربع كنت فيه كأنما
أمر من الأكرام بالحجر والركن
واجلال مغناك اجتهدا مقصّر

إذا السيف أودى فالعفاء على الجفن
ونعلم من أخبار أبي العلاء ، أن والده كان معلمه الأول ،
وعنه روى الحديث وتلقى دروسه الأولى في علوم اللغة ، ومنه تلقى
ميراثه الشعرى ، حيث يخاطبه في مراثيه بقوله :
أمولى القوافى كم أراك اتقيادها

لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن
وقد ظل يرعاه ، ويقوده على الطريق الى أن رزى بموته .
وفى سنة وفاته ومكانها ، اختلف الاخباريون ، فعند ياقوت أن
عبد الله « توفى بجمص سنة ٣٧٧ هـ » على حين يذكر « ابن
العتيم » أنه توفى بمعة النعمان سنة ٣٩٥ هـ .
والراجح عندنا قول ابن العديم بوفاة والد أبي العلاء بمعة
النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه فى موضعه من حياة
أبى العلاء .

الأم

سقتني دكرها ، ودعت ، وباتت

تعوذني وتقرأ أو تسمى
من قصيدة لأبي العلاء في شيخوخته

وقلما التفت مؤرخو أبي العلاء وجامعو أخباره ، الى الأم
التي أنجبت أديب العربية الأكبر . وكل ما ذكروه عنها ، أنها
« بنت محمد بن سبيكة » وأنها ماتت وأبو العلاء في طريق عودته
من بغداد الى المعرة ، سنة ٤٠٠ هـ ، قبل أن تودعه !
ونستقرئ آثار أبي العلاء ، فلا نجد فيها من الشطر
الأول ، حديثاً عن أمه . لكنها تبدأ فتظهر في آثاره ، من بدء
رحلته الى بغداد ، ثم يظل طيفها معنا في جوه ، الى آخر العمر .
وهو ما سافر الى بغداد ، الا بعد أن استأذنها فأذنت له في
السفر . حيث نقرأ في رسالته الى خاله أبي القاسم على :
« على أنني والله قد أعلمتها أنني مرتحل ، وأن عزمي على ذلك
جاد مزعم ، فأذنت فيه » .

ونكاد لا نتردد في القول بأن وراء حنينه الى المعرة أيام غربته
ببغداد ، طيف هذه الأم التي أثرها بأعمق الحب وأصفاه ، وكان

حبه لها نقيا محضا غير مشوب بعنصر الاكبار الذى يغلب على حبه
لأبيه وخاليه على والمشرف . وقد أجهده الحنين الى الديار اثر
فراقه لها ، وكان تحنان الأبل يهيج مواجعه وأشجانه ويلهب فيه
الوجد والشوق :

لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى
فهل زار هذى الأبل طيف خيال
وان ذهلت عما أجنّ صدورها

فقد ألهمت وجداً نفوس رجال
تهادانى الأرواح حتى تحطنى
على يد ريح بالفرات شمال
فيا برق ليس الكرخ دارى وانما
رمانى اليه الدهر منذ ليل
فهل فيك من ماء المعرة قطرة

تغيث بها ظمآن ليس بسال
ذلك الطيف الزائر كان طيف أمه ، يعاوده فى اليقظة والمنام،
حيث نسمعه فى احدى مرائيه للأم ، يتحدث عن حلم ألم به فى
الكرى ، فرأى أن أحد نواجذه سقط ، وتشاءم وفى قلبه
هاجس مرعب ، لولا أنه استهول أن يكون تأويل رؤياه موت
أمه ، وشتان ما بين ناجذ يجد عنه عوضا ، وبين أم لا عوض
عنها ولا عزاء !

وقد بلغه وهو بالعراق أنها مريضة ، فعجل ذلك بعودته
الى المعرة ، وحسم قراره بالانسحاب وكان قد صمم عليه ،

لكنه أقام يتهياً له ويتربق الفرصة . وفي قصيدة من سقط
الزند ، يقول مخاطباً أهل بغداد بعد فراقه لهم :

أثارنى عنكم أمران : والدّة

لم ألقها ، وثراء عاد مسفوتاً

أحياهما الله عصرَ البين ثم قضى

قبل الاياب الى الذخرين أن موتاً

لولا رجاء لقاءها لما تبعت

عنسى دليلاً كسراً الغمد اصليتا

ولا صحبت ذئاب الانس طاوية

تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتاً

ذلك لأنه أب الى داره ، فوجد أمه قد ماتت قبل أن
يلقاها . فكأنما ارتد لفرط حزنه وجزعه ، طفلاً رضيعاً فقد أمه !
وتشجينا مراثيه لها ، على بعد العهد بها ، ونحس أنها ومضات
لهب متقد فى فؤاده المتصدع . ومنها ، ومن أشعار له فى
اللزوميات ، وأماليه عن أمه فى الفصول والغايات ، وفى رسائله
الى خاله — وسوف نعرض لها بمزيد تفصيل — ندرك عمق
العاطفة التى كانت تربطه بأمه ، وعجزه عن نسيانها والسلو عنها ،
فى يقظة أو منام ، وفيها يقول :

إذا نمت لاقيت الأجابة بعدما

طوتهم شهور فى التراب وأحوال!

« يا سلوة الأيام موعذك الحشر ، موعد والله بعيد ! »

وصدق أبو العلاء .

لم يسئل أمته قط ، على تناول الأعوام وتنائي المزار : ففى
شيخوخته الواهنة ، يذكرها فى قصيدة قالها فى ابن أخيه القاضى
أبى عبد الله محمد :

أعبد الله ، ما أسدى جميلا نظير جميل فعلك مثل أمى
سقتنى درها ودعت وباتت تعوذنى ، وتقرأ ، أو تسمى
ويقول فى اللزوميات :

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه

لتهديه ، وامنن بإفهامك الصما
وأعط أباك النصف حيا وميتا

وفضّل عليه من كرامتها الأما
أقلك خفا اذ أقلتكَ مثقلا

وأرضعت الحولين واحتملت تما
وألقتك عن جهد وألقاك لذة

وضمت ، وشمت ، مثلما ضم أو شما
ويؤكد هذا المعنى بقوله :

العيش ماض فأكرم والديك به
والأم أولى باكرام واحسان

وحسبها الحمل والارضاع تدمنه
أمران بالفضل نالا كل انسان

ومن اللافت هنا ، أن أبا العلاء في بره بالأمومة ، يذكر
ما احتملت من مشقة وهمّ ، وما بذلت من حنان وأسدت من
جميل ، وينسى لها أنها شاركت في الجناية التي أخذ بها أباه في
بيته المشهور الذي أوصى أن يكتب على قبره :
هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

الآخوة

« وكانت الفتاوى فى بيتهم ، فى أكثر
من مائتى سنة بالمعرة »
(ابن العديم)

كانوا ثلاثة آخوة ، جمعتهم الأبوة الواحدة والمهد
المشترك ، وتلقوا جميعا ميراث البيت المعرق فى الفضل والأدب ،
على تفاوت فى حظ كل منهم من ذلك الميراث ، وعلى تباعد
ما بينهم نسبيا ، فى المولد والسن والأثر ..

أكبرهم : أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان ، المولود
سنة ٣٥٥ هـ . « وكان فاضلا أدبيا شاعرا ، وله ديوان شعر
مجموع » ويعدونه بين الذين روى عنهم أبو العلاء .

ولأبى المجد ولدان وليا قضاء المعرة : أبو محمد عبد الله الذى
كان من أقرب الناس الى عمه أبى العلاء ، وأبرهم به ، وأكثرهم
اخلاصا فى خدمته . وسنعود للحديث منه فى فضل يلى —
والقاضى أبو الحسن على ، سمع على عمه أبى العلاء جميع
أماليه ، ونسخها بخطه ، وولى قضاء حماة فى سنة ٤٥١ هـ بعد
موت أبى العلاء بسنتين .

وثانى الآخوة ، أحمد أبو العلاء

وأصغرهم : أبو الهيثم عبد الواحد ، المولود سنة ٣٧١ هـ .
 وكان شاعرا مجيدا فنقل من شعره — فيما يأتى من حديث
 عن رحلة بغداد — قصيدة مؤثرة كتبها الى أخيه مستعظما ،
 يسأله العودة رفقا بأحابه فى المعرة . وهى تعطينا فكرة واضحة
 عما كان أبو العلاء يحظى به من حب أخيه وإكباره . وقد كان
 شاعرا مجيدا « روى عنه أبو العلاء شيئا من شعره ، وجمعه لولده
 زيد بن عبد الواحد ، ومنه قوله وقد مرّ برجل يقلع حجارة
 من أطلال « سياث » وهى المعرة القديمة :

مررت بربع من سياث فراعنى
 به زجل الأحجار تحت المعاول

أمتلفها ، شئت يمينك خلّها
 لمعتبر أو زائر أو مسائل

منازل قوم حدثنا حديثهم
 فلم أر أحلى من حديث المنازل .
 وقد قرأ زيد بن عبد الواحد على عمه أبى العلاء ، وكذلك
 قرأ عليه ولده منافر — جابر ؟ — بن زيد ، وكتب بخطه من
 تصانيف أبى العلاء ، ما شهد له « ابن العديم » بالفضل وحسن
 النقل .

* * *

وقد عاش أبو العلاء بعد أخويه .

أما الأخ الأصغر ، أبو الهيثم ، فمات سنة ٤٠٥ هـ ، ولما يبلغ

الخامسة والثلاثين من عمره ، وليس له عقب سوى زيد وولده جابر .

وأما الأخ الأكبر أبو المجد ، فعاش حتى بلغ الخامسة والسبعين من عمره ، وتوفي سنة ٤٣٠ هـ .

وفي ولد أبي المجد ، عقب بنى سليمان . وقد استقصى « ابن العديم » مؤرخ حلب ، من اشتهر منهم ، الى منتصف القرن السابع الهجرى ، بالعلم والفضل ، ومن ولى القضاء . ثم نقل عن أبى القاسم بن الحسين الأنصارى ، عن الحافظ أبى طاهر السلفى أنه قال :

« قال لى الرئيس أبو المكارم ، وكان من أفراد الزمان : وكانت الفتاوى فى بيتهم — يعنى بنى سليمان — على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فى أكثر من مائتى سنة بالمرّة . »

* * *

وماذا عن البيئة ؟

المألوف فى التراجم ، أن يأتى الحديث عن البيئة اثر الحديث عن البيت والأسرة ، لكنى فى هذه الرحلة لحياة أبى العلاء بوجه خاص ، أرى أن موضع الحديث عن البيئة والعصر ، يحسن أن يتأخر الى أن يفرغ أبو العلاء من الشوط الأول لرحلة حياته ، ويخرج الى الدنيا بسفره الى بغداد . فهناك يواجه البيئة العامة ، ويبلو تجربة الاتصال بها ، والتنفس فى جوها ، بعد أن كان قبل

الخروج ، يكاد يكون مشغولا عنها بهموم طموحه ، وشواغل
تحديه لمحتته . أو بعبارة أخرى ، يكاد يكون شبه معزول في
نطاق دنياه الخاصة ، عما وراءها من صخب الحياة العامة
وأوضاعها . فلنكتف الآن بما قدمنا لرحلة حياته ، من حديث
عن بيته وأسرته .

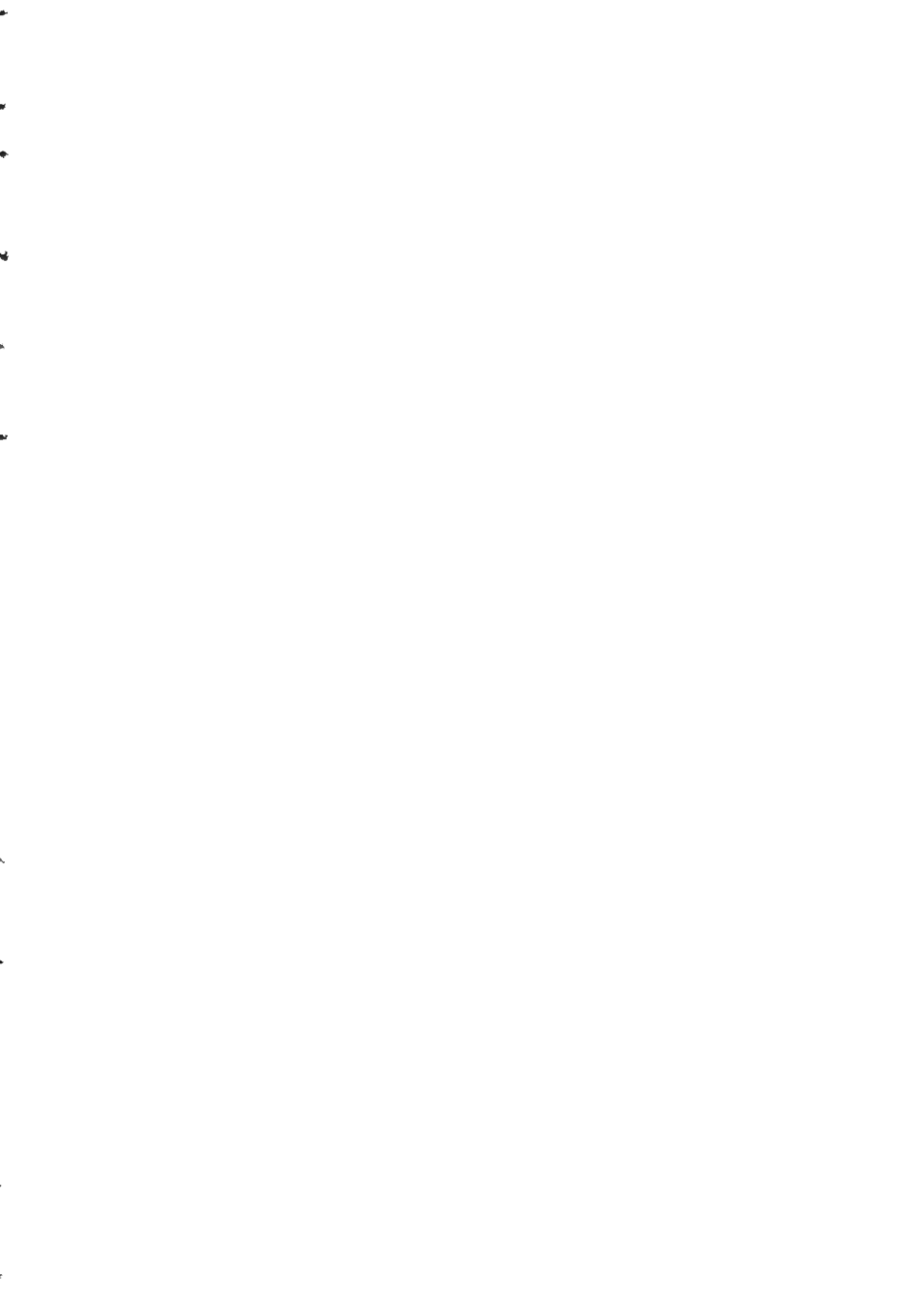
الفصل الثاني

رحمة حياء

المرحلة الأولى

معركة الخدي وطمس

- الطفل الضئير
- الغلام الموهوب
- الشاب الطامح
- ومضات كاشفة
- موت الأب
- إحدى راحتين



الطفل الضير

«قضى على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل
والربع»

من رسالة أبي العلاء الى داعي الدعاة

كان من حق مثله ، أن تنتهياً له من بيئته ظروف مسعفة
على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأولى على الطريق
الذى سار عليه أبوه وأجداده كائناً عن كابر . ولعل مخايل
النجابة لاحت عليه في طفولته الباكرة ، فأرهفت فيه ميرات
الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الفادحة قبل أن
تستقيم خطوته على درب الوجود : اعتل في سنته الرابعة علة
الجدري ، فما أبلّ منها الا وقد شوّهت وجهه بندوب لا يبرء
منها ، وذهبت ببصره مسدلة بينه وبين الدنيا حجاباً كثيفاً حالك
السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .

من ذلك الحادث الملم ، تبدأ قصة أبي العلاء مع الدنيا ...
ومن مؤرخيه من قال انه تلقى هذه الصدمة في سنته الثالثة ،
ذكر ذلك « الصفدى » في (نكت الهميان) و « ابن حجر »
في (لسان الميزان) . لكن أبا العلاء يقول في احدى رسائله الى
داعي الدعاة :

« قضى علىّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والرابع »
وليس بمستبعد أن يكون قد جدر في أخريات سنته الثالثة ،
ثم عمى في أوائل الرابعة . وكان كل ما بقى له من ذكريات عهده
بنور العين ، لون الثوب الأحمر الذى ألبسوه إياه فى علة ، قال :
« لا أعرف من الألوان الا الأحمر ، لأنى ألبست فى الجدرى
ثوبا مصبوغا بالعصفر ، لا أعقل غير ذلك . »

وبقى لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم »
فى (الانصاف والتحرى) حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى
أبا العلاء وهو صبى دون البلوغ ، ووصفه فقال : « وهو صبى
دميم الخلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى ،
كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا . »

كما نقل من قول عبد الله بن الوليد الايادى المعرى ، وقد
رآه شيخا :

« وكأننى أنظر اليه الساعة والى عينيه : احدهما نادرة
والأخرى غائرة جدا ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم . »
وتكفى هذه المرويات لتتمثله فى صباه الباكر ، حين بدأ يخطو
على درب الحياة وبينه وبين الدنيا هذا الحجاب الأصم من ظلام
دامس لا أمل فى انحصاره

فى ذلك الحين لم يكن الصبى قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه
بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة . وقد دربه أهله على

مواجهة عالم الظلام وراضوه عليه حتى ألفه واعتاده ، على أنه
 سوف يدرك بعد نضج السن والمعمى ، أن مأساة حياته كلها بدأت
 بتلك الآفة التي قصت عليه وهو في الرابعة من عمره ، كما قال في
 إحدى رسائل شيخوخته وسوف نسمعه في الشطر الثاني من
 حياته ، ^{بظلال} يطيل الحديث عن معاناة العمى ، وعن الظلام الذي
 لا ينجاب ، والليل الطويل الذي لا ينجلي ، ويعد من مزايا ضجعة
 القبر أنها تأمى العين المخطئة في الثرى ، ^{من عمى} ولم يحدث شئ
 إلا طفقنا في الثرى ^{فقد أمست من عمى} كما قد أمست من عمى ، أو رمد

الغلام الموهوب

« ما سمعت شيئاً الا حفظته ، وما حفظت شيئاً ونسيته »
(أبو العلاء)

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه الى عالم
يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام
عينيه :

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يثار اليهم في
القراءات » وسمع الحديث من أبيه عبد الله وجده سليمان
وأخيه أبي المجد وجدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل
المعري . وعن أبي زكريا يحيى بن مسعر المعري ، وأبي الفرج
عبد الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبي عمرو عثمان
الطرسوسي ، وغيرهم من محدثي المعرفة وحلب في زمانه .
وتلقى علوم اللغة والنحو بمعرفة النعمان ، على أبيه ، وعلى
أبي بكر بن مسعود النحوي ، وجماعة من أصحاب « ابن
خالويه » .

وكان الذي ظهر من ذكائه ونجابته ، قد أغرى أباه بأن
يمضى به الى حلب — وفيها أخواله — حيث تلقى النحو على
« محمد بن عبد الله بن سعد النحوي » .
وكان الظن الغالب ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ،

اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبي ، حيث كان شيخه ابن سعد ،
راوية أبي الطيب . لكن خبرا نقله ابن العديم في (الانصاف
والتحري) يجعلنا نتردد فيما غلب علينا من ظن . وخلاصة الخبر
أن ابن سعد كان يروي ، بمسمع من أبي العلاء — وقد اجتمع
معه بحلب وهو صغير — قصيدة المتنبي الدالية :

أزائر^١ يا خيال أم عائد أم عند مولاك أنتى راقد
ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على المتنبي ، بل كانت
مما أنفذه اليه . فلما وصل الى قوله :

أو مَوْضِعًا في فناء ناجية تحمل في التاج هامة العقاد
رده عليه أبو العلاء الصبي وقال :

✽ أو مَوْضِعًا في فتن ناجية (١) ✽

فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى الى نسخة عراقية ، فوجد
القول ما قاله أبو العلاء .

فهل كان الصبي قد اتصل بشعر المتنبي قبل مجيئه الى حلب ؟
أو كان ما قاله في البيت لمحة وجدان ذكي ، تذكرنا بمثلها من
« طرفة » حين سمع وهو صبي يلعب مع الغلمان بيت « المتلمس » :
وقد أتنامى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

فصاح الصبي طرفة : « استنوق الجمل » .

لأن الصيعرية سمة في عنق الناقة لا البعير .

(١) أوضع في السير فهو موضع : أسرع . والفتان : غشاء من
أدم يوضع فوق الرجل . والناجية : الناقة السريعة .

دعسواء ان كان ابا القلاء قد ذكر رويته (الابن عبد الله) للبيت
 عن ابي القلاء (ابن جابر) او كان قد سمع على الرواية للشيخ
 فيما سمع من اهل النعمانية وهو يقرأ اللغة والنحو للبحر (الضمان)
 والخبر يورج لنا العلاء: (ابن القلاء) بزاوية المتنبى الى ذلك الفترة
 من صباه الغض قبل الفتح لا يستقبل المؤثرات والذوقية. سولج يمكن
 هذه الاتصال شريكاً عابراً بل كان تلمذة علمية وأدبية لنا فلنقط
 منها ما قد يفسر لنا الغنى طائلاً خيراً من انجذابه الى الغنى بالمتنبى،
 على ما بين الرجلين من بون شاسع الى بالحقيقة والطبع والفتح
 السلوك الأدبي والاجتماعي قيل في لغة في لغة

: بالة * ربحا * العلاء * عا * عيلة

واستأنف * الصبي * قيل في يطلب العلم * توفي * أخيراً * أنه رحل الى
 طرابلس الشام، وكان بها نحو ثمانين كتب موقوفة بالانوار في رحلته
 «مر باللاذقية ونزل ديرا كان به راهب، له علم بالقرآن والفلاسة»
 سمع ابي القلاء بعض كلامه، فحصل له به تفكير في دينه اليها
 بغض للمورخين ما راى منهم من أمر به عقيدته بتبيل في حالة له زلا
 : «وتناقص» انجذاباً لمزاولة عمل الله في المعرفة ومعرفة «قوله»
 فابن كثير في (البداية والنهاية) اختار يميز الحق من كمالها، بل
 يكتفي بذلك: «ويقال انه اجتمع براهب في بعض الصوامع،
 في مجيئه من بعض السواحل» من واه «الذي له علم في الدين
 الاسلام» ! . ربحا كما قلنا وقد في قسم في عينا

نه * وابن القلاء * وهو عبادنا * اوليها * الثقة * في ربحا * الرحلة الى
 طرابلس جملة ثم في قولنا (انجذاباً والتحريراً) في ربحا * و

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد ، ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء ، وانما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد ابن عماره في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . ووقف ابن عمار بها من تصانيف أبي العلاء : الصاهل والشاحج ، والسجع السلطاني ، والفصول والغايات ، والسادن ، واقليد الغابات ، ورسالة الاغريض . »

وفي خبر آخر ، أنه رحل الى أنطاكية وتردد الى خزانة كتبها يحفظ ما فيها . قال « ابن منقذ » فيما نقل ابن العديم في (الانصاف) : « كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه فقال : قد خبأت لك غريبة ظريفة لم يسمع بمثلها ... صبي دون البلوغ ضرير يتردد الى ، وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذلك لأنني أقرأ عليه الكراسية والكراسيتين مرة واحدة فلا يستعيد الا ما يشك فيه ، ثم يتلو عليّ ما قد سمعه كأنه من محفوظه . قلت : فلعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله ! كل كتاب في الدنيا يكون محفوظا له ؟ وان كان ذلك كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار اليه ، وهو صبي دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدرى كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طوال من الرجال أحسبه يقرب من نسيبه ... فاخترت شيئا وقرأته على الصبي وهو يموج ويستزيده فاذا مر به شيء يحتاج الى تقريره في خاطره

يقول : أعد هذا . فأرده عليه مرة واحدة حتى انتهت الى ما يزيد على كراسة ، فتلا على ما أمليته عليه وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا حتى انتهى الى حيث وقفت ، فكاد عقلي يذهب لما رأيته منه . وسألت عنه فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء .

وفي الحكاية وهم أشار اليه « ابن العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدي الروم من سنة ٣٥٨ هـ قبل مولد أبي العلاء ، الى أن فتحها سليمان بن قطامش سنة ٤٧٧ هـ بعد موت أبي العلاء بثمانية عشر عاما . لكن هذا الوهم لا يضيع دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبى الضرير وعجيب حفظه ، وقد عقد ابن العديم فصلا « فى ذكر ذكاء أبي العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه أعاجيب ان اتهمناها بالوضع ، فلن تنهم دلالتها على رأى معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر من نجابته وفطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

وبمثل هذه الدلالة ، تشهد حكاية ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم لينظروه ويمتحنوه ، فقال لهم : هل لكم فى المقافاة بالشعر ؟ فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد من حفظه بيتا على قافيته ، حتى نفذ حفظهم فقال : أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التى يريد ؟ قالوا : فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت ، حتى قطعهم جميعا !

الشاب الطامح

لى الشرف الذى يظأ الثريا
مع الفضل الذى بهر العبادا
أفل نواىب الأيام وحدى
اذا جمعت كتائبها احتشادا
(سقط الزند)

من ذلك العهد المبكر ، اهتدى أبو العلاء الى سلاحه فى معركة الوجود وعرف طريقه على الدرب . وقد أرضاه أن يجد فى موهبته القذة عوضا عما فقد ، وأن يلتمس من العلم النور الذى حجب عنه العمى مذ كان فى المهد صبيا .

وفى اعتداد وعناد ، صمم على أن يتحدى محنته ، وأن يشق سبيله مع الأحياء لا يعوقه فقد البصر . وبلغ المدى فى مكابرتة ، فرئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون اللهو والجد كما يفعل لداته المبصرون . ومن أقدم ما وصل إلينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبي » فى (تنمة اليتيمة) قال : « وكان حدثنى أبو الحسن المصيصى الشاعر وهو ممن لقيته قديما وحديثا فى مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ،

ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء وسمعته
يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ،
فقد صنع لى وأحسن بى اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء »
وتقلوا فى ذلك قوله :

قالوا : العمى منظر قبيح قلت : بفقدانكم يهون
والله ما فى الوجود شئ تأسى على فقده العيون
والبيتان مما لم يرو فى ديوانيه (سقط الزند ولزوم ما لا يلزم)
على أن لدينا من المروى فى (السقط) من شعر شبابه ، ما يقدم
الشهادة الصادقة على ما كان من بعد طموحه وعجيب مكابرتة
وعنف اصراره على اقتحام معركة الوجود .
وأشير هنا الى قصيدته اللامية المشهورة :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم ونائل
وفىها يقول مفاخرا متحديا :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوؤها متكامل
يهم الليالى بعض ما أنا مضمّر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وانى وان كنت الأخير زمانه
لأت بما لم تستطعه الأوائل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسرى ولو أن الظلام جحافل

دوين مكانى السبع الشدادا
ويقدح فى تلهبها زنادا
ويغضنى ضميرا واعتقادا
ولا وأييك ما أرجو ازديادا
مع الفضل الذى بهر العبادا
أبرء على مدى زحل وزادا
إذا جمعت كتائبها احتشادا
وتأبى أن تحل بى الوهادا
وتحمل كى تبهء النجم زادا

وكم من طالب أمدى سيلقى
يؤجج فى شعاع الشمس فارا
ويظهر لى مودته مقالا
فلا وأييك ما أخشى انتقاصا
لى الشرف الذى يطاء الثريا
ولو ملاء السهى عينيه منى
أقل نوائب الأيام وحدى
ولى نفس تحل بى الروابى
تمد لتقبض القمرين كفا

* * *

إذا أنا لم تكبرنى الكبراء
على ، وخفق الريح فى ثناء
وكل كلام الحاسدين هراء
ونحن على قوالها أمراء
ولا بات منا فيهم أسراء
وليس له من قومنا خفراء

ورائى أمام والأمام وراء
بأى لسان دامن متجاهل
تكلم بالقول المضلل حاسد
أتمشى القوافى تحت غير لوائنا
وما سلبتنا العز قط قبيلة
ولا سار فى عرض السماوة بارق

على أنه لم يغفل مع ذاك التحدى ، عما حوله من ضلال
المقاييس واختلال الموازين وزيف القيم ، مسجلا من ذلك العهد،
ادراكه لفساد العصر وهزل الدهر ، فذلك حيث يقول فى فخريته
اللامية :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا

تجاهلت حتى ظن أنى جاهل

فواعجبا كم يدعى الفضل ناقص
ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
إذا وصف الطائيّ بالبخل مادر
وعير قسّاً بالفهامة باقل
وقال السهى للشمس أنت خفية
وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر ان الحياة رخيصة
ويا نفس جردى ان دهرك هازل

* * *

وبدا أن القدر أملى له حيناً ، فمضى فى شببته ملء الزهو
والطسوح ، وواتته شاعريته فلم يدع غرضاً من أغراض الشعر
المعروفة الى عصره الا نظم فيه ، على مذهب الفحول السابقين :
مدح لغير تكسب ، وهناً بالعروس والولد ، ورثى وهجاً ، وتغزل
وافتخر ، على تفاوت فى مدى العناية بكل ذاك . واتصل بالحياة
العامة عن قرب ، فشغل بالمعارك الدائرة بين العرب والروم ، وقال
فيها قصائد حماسية ، مطولة رنانة ، وعزف للأبطال أناشيد النصر :
مكلف خيله قنص الأعادى
تكاد قسيه من غير رام
تكاد سيوفه من غير سكل
إذا سقت السماء الأرض سحبا
ويضحى والحديد عليه شاك
ولولا ما بسيفك من نحول
وجاعل غابه الأسل الطوالا
تمكن فى قلوبهم النبلا
تجد الى رقابهم انسلالا
سقاها من صوارمه سجلا
وتكفيه مهابته النزالا
لقلنا أظهر الكمد اتحالا

يذيب الرعب منه كل عصب
 حفظه الحفظ المنيق
 بوقت لا يطيق الليث فيه
 أبو غندنا بالروم فأس وانما

يؤخذ بالروم فاس وائس
 قيفه تاء سمشلا ريسا راقه
 يا لنجا رصحا اسنشات رخلهم
 كان لم يكن بين المخاض وحارم
 قمض قلعنا زان تهم ليه
 كتاب يشجق الفلا وخيام
 بالغه ثام زان رصق ريه
 ولم يطلبوها من ورا ملطيه

[illegible]

فلا تقول الا الضارب بالاعين عندنا ردلما رحمة عليه بقلده
 كالبنا موعلة في نسمة ولا اراستل الا ذرايل موعسة عالم
 فان استقام الجراح توالت جراحه راس يذنه
 كالجحش من ايسه نه لهلق وان لم يبعده متنا ونحن كرام
 فلسنا وان كان البقاء محيا

بأول من أحنى عليه حمام

فلما تجلى الأمر قالوا تمنيا
 ألا ليت أنا في التراب رمام
 وراموا التي كانت لهم واليهم
 وقد صعبت حال وعز مرام
 وغلنوك ممن يطفىء البرد نارك
 اذا طلعت عند الغروب جهام
 وأنت تشيها قبالة « جلق »
 متى لاح برق واستقل غمام
 وقالوا : شهور ينقضين بغزوة
 وما علموا أن القبول حرام !



ولدينا كذلك من شعره في مرحلة الشباب ، ما يشهد بأنه كان
 يسرف في أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة ، ويفرض
 عليها أن تأخذ في فنون اللهو والطرب ، الى جانب ما تعلقته به
 من فنون الجد وما كان يستهوئها من طلب العلم والمجد .
 ففى سقط الزند — ديوانه الأول — نسمعه يشدو بذكريات
 لهو ، ويصف احدى لياليه قائلا :
 رب ليل كأنه الصبح فى الحـ
 ن وان كان أسود الطيلسان
 قد ركضنا فيه الى اللهو حتى
 وقف النجم وقفة الحيران

وكأنى ما قلت والبدر طفل
وشباب الظلام فى العنقوان :
ليلى هذه عروس من الز
نج عليها قلائد من جمان
هرب النوم من جفونى فيها
هرب الأمن من فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتقنان
وسهيل كوجنة الحب فى اللو
ن ، وقلب الحب فى الخفقان
يسرع الملح فى احمرار كما تسر
ع فى الملح مقالة الغضبان
ثم شاب الدجى فخاف من الهج
ر فغطى المشيب بالزعفران
ولا يخطئنا فيها حس التحدى ، بهذه الصور المرئية التى
لا سبيل لمثلها الى ادراكها بالبصر المغلق ، كما لا يخطئنا فيها
شعوره المرهف بسواد الظلمة فى أسود الطيلسان ، وعروس من
الزنج ، وعنقوان شباب الظلام ، وكذلك تشبثه بذكرى اللون
الأحمر الذى وعاه منذ ألبسوه فى علة الجدرى الثوب المصبوغ
بالزعفران .
وتكاد هذه الملاحظ ، تميز ما فى ديوانه من شعر الوصف ،
وصور التشبيه والاستعارة .

وماذا عن الحب ؟

في (سقط الزند) نسمعه يغنى للحب ، ويشدو بغزليات
تذوب رقة وشجوا ووجدا ، ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات .
ولا نعلم من أخباره ، ما ينم عن حبه لامرأة ما ، وليس في
آثاره إشارة من قرب أو بعد الى أنه عانى التجربة في الواقع
المادى . ونقول مع ذلك ، ان شعره في الغزل معبر عن معاناة
وجدانية صادقة لظماً الى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت
أشواقه تنفيساً عما يكابد من ظمأ ولهفة ، وأنقل من شعره في
سقط الزند :

أسالت أتىّ الدمع فوق أسيل
ومالت لظل بالعراق ظليل
أيا جارة البيت الممنع أهله
غدوت ومن لى عندكم بمقيل
لغيرى زكاة من جمال وان تكن
زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل
وأرسلت طيفاً خان لما بعثته
فلا تثقى من بعده برسول
أسرت أخانا بالخداع وانه
يعد اذا اشتد الوغى بقبيل
فان تطلقه تملكى شكر قومه
وان تقتليه تؤخذى بقتيل

وان عاش لاقى ذلة ، واختياره
وفاة عزيز لا حياة ذليل
وكيف يجر الجيش يطلب غارة
أسير" بمجرور الذبول كحيل

* * *

ان كان طيفك برًا في الذي زعما
فان قومك ما بروا لهم قسما
آلى أميرك لا يسرى الخيال لنا
اذا هجعنا ، فقد أسرى وما علما
وكم تمت رجال فيك مغضبة
أن يبصروه فلم يظهر لهم سقما
نشوف من آل هند بارقا أرجا
كأنما فض عن مسك وما ختما
اذا أطل على أيات بادية
قام الولائد يستقبسه ضرما

* * *

ان كنت مدعيًا مودة زينب
فاسكب دموعك يا غمام ونسكب
فمن الغمام لو علمت غمامة
سوداء ، هداها نظير الهيدب
بالجفن بارزت القلوب وانما
بالنصل يبرز كل شهم محرب

الا الوهم ، والا التشبث بطيف يلم بالمدنف المشوق ، ثم يسرى
بعيدا الى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غرة الحى الكثير شياته

ما تأمرين لمدنف متمائل

لاقاك فى العام الذى ولّى فلم

يسألك الا قبلة فى قابل

ان البخيل اذا يمد له المدى

فى الجود ، هان عليه وعد السائل

وسألت ما بين العقيق الى الغضا

فجزعت من أمد النوى المتناول

جهل " بمثلِكَ أن يزور بلادنا

يختال بين أساور وخلاخل

* * *

منك الصدود ومنى بالصدود رضى

من ذا علىّ بهذا فى هواك قضى

بى منك مالو غدا بالشمس ماطلعت

من الكآبة ، أو بالبرق ما ومضا

جربت دهرى وأهليه فما تركت

لى التجارب فى ود امرىء غرضا

اذا الفتى ذم عيشا فى شببته

ماذا يقول اذا عصر الشباب مضى

ولا نرفض أن تكون هذه الغزليات من الشعر الرمزي الذي
يخفي وراء ظاهر لفظه دلالة مستورة على آميات تعلق بها
أبو العلاء في شبابه ، كأن تكون هذه الجيبة رمزا الى الدنيا ،
أو الى المجد ، أو الى نعمة البصر التي حرم منها ، أو .. أو ...
لكن تبقى مع هذا كله دلالة ايثاره لهذا الأسلوب ، على
ما كان يقاسى من مواجد الحب . وهى دلالة لا تكشف عنها
قصائده المفردة للغزل فقط ، بل تشاركها فيها مطالع قصائد أخرى
في غير الغزل ، كاستهلاكه لبعض مدائحه في ديوانه الأول ، بمثل
قوله :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر
لعل بالجزع أعوانا على السهر
ويا أسيرة حجليها أرى سفها
حمل الحلى لمن أعيا على النظر
ما سرت الا وطيف منك يتبعنى
سرّى أمامى ، وتأويا على أثرى
لو حطّ رحلى فوق النجم رافعه
ألفيت ثمّ خيالا منك منتظرى
يود أن ظلام الليل دام له
وزيد فيه سواد القلب والبصر!
واستهلاه قصيدة اخوانية ، بعث بها الى الشريف موسى
ابن اسحاق ، بقوله :

الخيال ، متحديا بذلك واقعه ، وملتمسا لظئّه من سراب
الوهم ريا !

واذا كنا نعجب لما سمعنا فى غزلياته من حديث مثله عن
السيف والغمد والحمائل ، وعن الغارة والجيش ، والأسير الذى
يعد اذا اشتد الوغى بقبيل ، فأعجب منه أن نراه قد نظم ديوانا
فى « الدرعيات » — ملحقا بسقط الزند — وهى من عدة الحرب
التي لا مجال له فيها بحال !

ماضيا فى ذلك ومثله على غلوائه ، ومصرا على أن يخوض
معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من مكابرة وعناد ...

ومضات كاشفة

نلوم على تبلدها قلوبنا تكابد من معيشتها جهادا
(سقط الزند)

آكان أبو العلاء ، في لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب
فطنته ، بحيث يجهل عقم هذه المكابرة التي تجعله يقول انه يحمد
الله على العمى ، أو يقول :
وأغدو ولو أن الصباح صوارم

وأسرى ولو أن الظلام جحافل

كلا ...

وانما كان يجلجل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المرء ،
وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على مالا حيلة له فيه .
أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج الصاخب ، أن يصم سمعه عن
صوت في أعماقه يؤرقه ليل نهار :

أما آن أن تكف عن هذا العناد العقيم والمكابرة الخائبة ؟
وقد عبر عنه ، دون تنبه منه ، مطلع قصيدته الحماسية في الجهاد
ضد الروم :

لقد آن أن يشنى الجموح لجام
وأن يملك الصعب الأبي زمام

وعبرت عنه كذلك ، نثأت حزينة أفلتت منه واشية بما كان
يطوى في أعماقه ، وومضات كاشفة عن مكتوم قهره وأساه .
وأكثر ما تلقانا هذه الومضات ، في مراثيه التي صدرت عنه
ناضحة بالمرارة والشجن واليأس ، مثل مراثيه في أبويه
— وستأتي بعد — ومرثيته في جعفر بن على بن المهذب ، وقد
كان من رفاق صباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما ، بزواج عمه
أبى العلاء من أبى محمد بن المهذب ، وفي هذه المرثية يقول :

كان الأسى فرضا لو ان الردى

قال لنا : اقدوه ، فلم نفده
يا دهر يا منجز ايعاده

ومخلف المأمول من وعده
أى جديد لك لم تبلة

وأى أقرانك لم ترده
تستأسر العقبانَ في جوّها
وتنزل الأعصم من فنده

أرى ذوى الفضل وأضدادهم
يجمعهم سيلك في مدّه
تجربة الدنيا وأفعالها

حشت أخا الزهد على زهده
ان زمانى برزاياه لى
صيرنى أمرح فى قدّه

لو عرف الانسان مقداره
 لم يفخر المولى على عبده
 أمس الذى مرّ ، على قبره
 يعجز أهل الأرض عن رده
 أضحى الذى أُنْجِلَ فى سِنِه
 مثل الذى عوجل فى مهده
 ولا يبالى الميت فى قبره
 بذمه شيع أم حمده
 والواحد المفرد فى حتفه
 كالحاشد المكثّر من حشده
 وحالة الباكي لآبائه
 كحالة الباكي على ولده
 ما رغبة الحيّ بأبنائه
 عما جنى الموت على جدّه
 تدعو بطول العمر أفواهنا
 لمن تنهى القلب فى وده
 يسر ان مِتدّ بقاء له
 وكل ما يكره فى مدّه !
 ومريثته المشهورة فى الفقيه القاضى أبى حمزة التنوخى ،
 وهو من بنى عمومته ورفاق صباه :
 غير مجد فى ملتى واعتقاده
 نوح باك ولا ترنم شاد

وَمِنْهُنَّ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْفِتْنَةِ إِذَا دُعِيَ بِهَا وَهُنَّ أَعْيُنُ النَّارِ وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الْفِتْنَةِ يَحْمِلُ فِيهَا ثَمَرَهَا

أبكت: تلكم الحمامة أم غدا
 صاح هذي قبورنا تملأ الرخا
 خفف الوطء ما أظن أديم
 وقیح بنا وإن قدم العهـ

قد هو ان الآباء والأجداد
 سر ان اسطعت في الهواء رويدك
 لستته من ميسرة لستته
 رب لحد قد صار لحد مرار كما
 لستته ريس ريسنا
 ودفين على بقايا دفين
 لستته ريسنا ريسنا
 والأباد

تعب كلها الحياة فما * * أعجب الا من رغب في ازدياد
 كنفه وحل الرضا فلما أراد * * اليقين وافقت رايه في المراد
 وحملت الشبان غصافه * * كيناف ابلش عشه نفع الا تدا
 فاذها حير ذاهين تحقيق * * بشيقا رويح وعواد
 ومراة ملوت مهن * * المصوغه رغبه اتمه ان ظا ثلاثة
 حله لتلك زينه دلفه * * لئلا تلتج (عنونا) فلقبه (عنا) في
 لمحول السلطان في الا نكاد

وكتب الى بعض اخوانه ، معذرا عن قعوده عن تعزيتيه في
فقيد من أهله :

يا راعي الود الذى أفعاله

تغنى بظاهر أمرها عن نعتها

لو كنت حيا ما قطعتك فاعتذر

عنى اليك لخله بأمتها

فالأرض تعلم أننى متصرف

من فوقها ، وكأنى من تحتها

غدرت بى الدنيا وكل مصاحب

صاحبه غدر الشمال بأختها

شغفت بواقمها الحريص وأظهرت

مقتى لما أظهرته من مقتها

لا بد للحسنة من ذام ولا

ذام لنفسى غير سىء بختها

ولقد شركتك فى أساك مشاطرا

وحللت فى وادى الهموم وخبثها

* * *

ومنا من كان يظن أن مرآثيه تنفرد بهذا الايقاع الحزين ،
وأن غيرها من شعر شبابه ، كله طموح واستعلاء ، وزهو واعتداد .
وأعترف بأننى كنت ، الى عهد قريب ، من بين الذين غلب عليهم
ذلك الظن ، ثم لما عدت أصغى من جديد الى صوت أبى العلاء فى
ديوانه (سقط الزند) أدركت أننا كنا على خطأ ، حين فاتنا لمح

الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر في أعماق وجدانه ، لا في
مراثيه فحسب ، ولكن كذلك في مدائحه وحماسياته ، وغزلياته
وفخرياته ، وأكاد أقول في كل قصيدة من شعر شبابه .

وانما شغلنا عنها يبريق طموحه الساطع ، وتاهت منا في
ضجيج مكابرتة واستعلائه ، وعذرنا هنا أن أبا العلاء نفسه ،
حاول صادقا مخلصا ، أن يشغل بهذا الضجيج عن مكابדתه
النفسية لدواعي اليأس والقنوط ، وهواجس الخيبة والقهر ،
لولا أن أفلتت من أعماقه ، من حيث يدرى ولا يدرى . وقد
مرت بك أبيات من الفخرية ، التي استهلها بالسؤال العجيب :

أفوق البدر يوضع لى مهاد

أم الجوزاء تحت يدى وساد !

فاسمع اذن مافيها من حسرة على ظمئه وحرمانه ، لا يخفيها
أن ردء هذا الحرمان الى أن موضعه فوق السحاب ، حيث
لا سبيل الى قطرة من رى :

كأنى حيث ينشا الدجن تحتى

فها أنا لا أمطل ولا أمجاد

أأخمل والنباهة فى لفظ

وأقتر والقناعة لى عتاد

وألقي الموت لم تخذ المطايا

بحاجاتى ، ولم تجف الجياد !

وأبياته التي باهى فيها بشرفه الذى يطاء الثريا وفضله الذى

بشر كالعبداء والجليل لم يثقل في نوائجنا إلا بالواجب منه فخذوا لجلالتكم فيها
 التخليق فدا ما قد ليس كنتم بهذا إلا من قبل الامن بقاء - بسحقه هيا له
 ارى العنقاء فتكبروا فحسبكم قلة راء في راحة علا آء د مثل راحة
 في له تها له : راء لسا عر فطرتا نيك من منطلق راء فطرتا
 وملك فطرتا العنقاء : طلب لنمو لكونكم : د هاء العنقاء د هاء لاء وحيث
 د هاء لاء د وحيث عفا انما راء الاقام لا تعطى قية لسا لاء
 فلو موقا على قية لسا لاء راء لاء راء لاء راء لاء راء لاء راء لاء
 دقة . د
 اذا : ما لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء : قية لسا لاء د لسا لاء د
 فأوشك أن تمسك بهما راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء
 ولما لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء

الخطوب على حتى
 وهو ن الخطوب على حتى
 شيء : باللسان راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء
 كاني صرت أمنحها وادار
 : راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء
 أنكرها ومنبتها فؤادي

وتحيتي لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء
 وكيف تنكر الأرض القناد
 وفصيده كثر في لسا لاء التي سمعته فيها يصف ليلة لهو كأنها
 عروس من الزنج ، مطلعها هذا الجوار الحزين : قه لسا لاء راء لسا لاء
 علالتي فلنا قية لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء

فليس والظلام تيسر فقال
 كم أردنا أن نمر زمان بقدر
 راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء
 راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء راء لسا لاء

وفيها يقول معتذرا الى الشريف أبى ابراهيم موسى :
 فاقتنع بالروى والوزن منى
 فهمومى ثقيلة الأوزان
 من صروف ملكن فكرى ونطقى
 فهى قيد القواد قيد اللسان
 ولا ميته المشهورة فى الفخر ، لم تخل من كلمات تنم عما حاول
 أن يطوى من هموم ، تحت ركام التبدل واللامبالاة :
 يهم الليالى بعض ما أنا مضر
 ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
 وطال اعترافى بالزمان وأهله
 فليست أبالى من تغول الغوائل
 فلو بان عضدى ما تأسف منكبى
 ولو مات زندى ما بكته الأنامل
 ويستهل أخرى من قصائد التحدى ، بهذا الأنين الجريح :
 ذلت لما تصنع أيا منّا نفوسنا تلك الأبيات
 تجنى خمور الهمّ ما لم تكن تجنى الخمور العنبيات
 ويروون أنه سئل اجازة هذا البيت :
 شغلى ببعدى عنك يشغلنى ويصدنى عن كل أشغالى
 فصدرت عنه هذه الأبيات ، مشحونة بهواجس اليأس ،
 صارخة بلهات الظمأ :

ما يوم وصلك وهو أقصر من
 نفس ، بأطول عيشة غالى
 علقت جبال الشمس منك يدي
 وجديدها في الضعف كالبالي
 وأردت ورد الوصل من قمر
 فصدرت عنه كوارد الآل
 وطلبت عندك راحة ، وعلى
 قدر اعتقادي كان ادلالى
 وظننت في البلوى مناي ولم
 تكن المنية لى على بال
 ما زلت أبلغ ما هممت به
 حتى هممت بكوكب عال
 ان فات سلوان الحياة فكل الناس بعد مماته سال
 يا جنة عرضت معجلة
 فاخترتها وعصيت عذالى
 يضحي الرضاب لأهلها بدلا
 من بارد في الخلد سلسال
 ان لم تدومى صح فى خلدى
 أنى بنار جهنم صال
 قلبى أعاتب فهو يلزمنى
 أبدا تكلف هذه الحال !

واذن فلم يكن أبو العلاء فى معركة الأولى ، قد كذبتة نفسه
أو أخطأه حس ما تكابد من هم وقهر .
كما لم تكن أشعاره فى التحدى والمكابرة ، من الزيف
الوجدانى ...

وانما الذى يشهد به ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب
الطامح حاول ما وسعه الجهد أن يقاوم الاستسلام الى واقعه ،
والرضوخ لما كبّلتة به محنته من قيود تشل انطلاقه وتلجم طموحه
دون أن يخونه فى هذه المحاولة وعى ذاته . وبقدر ما كان صادقا
فى شعره المعبر عن رغبته المخلصة فى الاستعلاء واصراره العنيد
على المكابرة والتحدى ، كان صادقا كل الصدق فى تلك الفلتات
الكاشفة عن مطوى أشجانه ، الصادرة عن فؤاد يجرع خمور
الهموم :

نلوم على تبلدها قلوبا

تكابد من معيشتها جهادا !

موت الأب

كأن دعاء الموت باسمك نكرة
فرت كبدي ، والسم ينفث في أذني
(سقط الزند)

مضى الحائر في معركته منتظرا ما تأتي به الأيام .
وجاءته الأيام بما انتظر ، من حيث يدرى ولا يدرى :
لقد توقع بحسه المرهف أن في جعبتها سهاما أخرى ، لكنه
لم يكن يدرى في أى موضع يقع السهم هذه المرة .
حتى مات أبوه عبد الله

فنفذت الطعنة الى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضير أبا
رحيما ومعلما صديقا ، وحرّم بفقده من كان يعينه على محتته ،
ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

* * *

ومتى مات أبوه ؟ وأين ؟

اختلفت الروايات في ذلك اختلافا بعيدا ، وهي في جملتها ترجع
إلى قول « يا قوت الحموى » في معجم الأدباء : « أنه توفي
بحمص سنة ٣٧٧ هـ »

أو الى قول ابن العديم في (الانصاف والتحري) : « وتوفي أبو محمد عبد الله بن سليمان والد أبي العلاء بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة »

وبين الروائين فرق شاسع ، لايهون أن نمر به دون أن نبذل محاولة للاهتمام فيه الى ما نطمئن به الى أننا لم نفقد الشعاع المضيء لحياة أبي العلاء ، في تلك المرحلة الدقيقة من عمره ، وهو يخوض معركته الأولى مع الأيام ، مضغوطا بين طموح جامع وواقع مشبّط مخذل ...

ومصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) لم يفهم أن يلحظوا بعد ما بين الروائين ، لكنهم فيما يبدو اكتفوا بترجيح رواية « ياقوت » حيث نقلوها بغير توقف أو تعليق ، فلما وصلوا الى رواية « ابن العديم » لم يدعوها تمر كسابقتها ، بل علقوا عليها في الهامش بما نصه :

« كذا ، وانما توفي سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت »

دون أن يتجشموا مشقة الفحص لكلتا الروائين

ودون أن يшиروا من قريب أو بعيد الى وجه ما ، لهذا الترجيح الذي ساقوه بصيغة القصر الحاسمة .

ويشق علينا أن يحسم مثل ذلك الخلاف بهذه البساطة ، مع ما نعلمه من تخصص « ابن العديم » في تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف كتاب جامع مفرد عن أبي العلاء وأسرته ، مما يجعله أولى بالثقة من « ياقوت » الذي كان اهتمامه بأبي العلاء ،

محدودا بالقدر الذى تتسع له ترجمته للحشد الكاثر من الأدباء
الذين عرف بهم فى معجمه الكبير .

ثم ان « ياقوت » فيما روى من أخبار أبى العلاء وأسرته ،
يرسل مروياته غالبا بلا اسناد ، على حين نرى « ابن العديم »
يحرص على ذكر أسانيد . وأكثر من روى عنهم « من بنى
سليمان ، أو من بين الذين لقوا تلاميذ أبى العلاء ومعاصريه . كما
يحرص على تحديد طرق الرواية ، قراءة أو سماعا أو اجازة
أو مكتابة .

ونقول مع هذا ، ان تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه
لا يكفيان لترجيح روايته فى وفاة والد أبى العلاء ، مالم تؤيدها
قرائن وشواهد يهذى اليها الفحص النقدي للروايتين .

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو
غلام فى الرابعة عشرة من عمره ، ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه
بدأ يقول الشعر وهو ابن احدى عشرة أو اثنتى عشرة سنة .
فلننظر اذن فى مرثيته لأبيه ، لنرى ما اذا كانت تجربة غلام
مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر الا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ،
على أقصى الأجلين ؟

نقمت الرضى حتى على ضاحك المزن

فلا جادنى الا عبوس من الدجن

فليت فمى ان شام سنى تبسما

فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن

أبى حكمت فيه الليالى ولم تزل
رماح المنايا قادات على الطعن

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن

فيا ليت شعرى هل يخف وقاره
إذا صار أحد فى القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى

حجبا زاده من جرأة وسماحة
وبعض الحجا داع الى البخل والجبن

* * *

على أم دفر غصبة الله انها
لأجدر أنشى أن تخون وأن تخنى

كعاب : دجاها فرعها ، ونهارها
محيا لها قامت له الشمس بالحسن

رآها سليل الطين والشيب شامل
لها بالثريا والسماكين والوزن

زمان تولى وأد حواء بنتها
وكم وأدت فى اثر حواء من قرن

كأن بنيتها يولدون وما لها
حليل ، فتخشى العار ان سمحت بآبن

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى
يراد بنا ، والعلم لله ذى المن
إذا غيب المرء استسر حديثه
ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
تضل العقول الهزليات رشدها
ولم يسلم رأى القوى من الأفق
وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

* * *

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما
جنى النحل أصناف الشقاء الذى تجنى
فما رغبت فى الموت كدّر مسيرها
الى الورود خمس ، ثم يشرب من أجن
يصادفن صقرا كل يوم وليلة
ويلقي شرا من مخالفه الحُجن
ولا قلقات الليل باتت كأنها
من الأين والادلج بعض القنا اللدن
ضربن مكيعا بالسنايك أربعا
الى الماء ، لا يقدرن منه على مَعْن
وما استعذبت روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

* * *

أمولى القوافى كم أراك انقيادها
لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن

هنيئاً لك البيت الجديد موسدا
يمينك فيه بالسعادة واليمن

مجاور سكن فى ديار بعيدة
من الحى ، سقيا للديار وللسكن

طلبت يقينا من جهينة عنهم
ولن تخبرينى يا جهين سوى الظن

فان تعهدينى لا أزال مسائلا
فانى لم أعط اليقين فأستغنى

وان لم يكن للفضل ثم مزية
على النقص ، فالويل الطويل من العبن

* * *

أمر بربع كنت فيه كأنما
أمر من الاكرام بالحجر والركن

واجلال مغناك اجتهد مقصر
اذا السيف أودى ، فالعفاء على الجفن

لقد مسخت قلبى وفاتك طائرا
فأقسم ألا يستقر على وكن

يقضى بقايا عيشه ، وجناحه
حيث الدواعى فى الإقامة والظعن

كأن دعاء الموت باسمك نكزة
 فرت جسدى والسم ينث في أذنى
 ضعفتَ عن الاصبح والليل ذاهب
 كما فنى المصباح في آخر الوهن
 وما أكثر المثني عليك ديانة
 لو ان حماما كان يثنيه من يثنى
 يوافيك من رب العلا الصدق بالرضى
 بشيرا ، وتلقاك الأمانة بالأمن
 ويكنى شهيد المرء غيرك هبة
 وبقيا ، وان يسأل شهيدك لا يكنى
 يصرح بقول المسك دونك نقحة
 وفعل كأمواء الجنان بلا أسن
 يد " يلت الحسنى ، وأنفاس ربها
 تقى ، ولسان لا يحرك باللسن
 فليتتك فى جفنى موارى نزاهة
 بتلك السجايا عن حشاي وعن ضبنى
 ولو أودعوك الجو خفنا مَصيفه
 ومشتاه ، وازداد الضنين من الضن
 فيا قبر واه من ترابك لنا
 عليه ، وآه من جنادلك الخشن



فهل أنت ان ناديتُ رمسك سامع
 نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن
 سأبكي اذا غنى ابن ورقاء بهجة
 وان كان ما يعنيه ضد الذى أعنى
 ونادية فى مسمعى كل قينة
 تغرد باللحن البرىء عن اللحن
 وأحمل فيك الحزن حيا فان أمت
 وألقك لم أسلك طريقا الى الحزن
 وبعدك لا يهوى القواد مسرة
 وان خان فى وصل السرور فلا يهنى

* * *

كلا !

ليس هذا حديث غلام مراهق « ابن أربع عشرة سنة !
 ولا هو شعر مبتدىء ، فى مستهل تجربته الشعرية ..
 وانما هو صوت رجل ناضج بلا الدنيا وعرف حكم الليالى
 وأثخنه الجراح ، وأطال التفكير فى محنة وجود مصيره العدم ،
 وأرهقته الحيرة فى التماس اليقين عما بعد الموت !
 صوت نحس فيه نبرات واضحة من صوت أى العلاء الذى
 سوف نسمعه بعد بضع سنوات فى عزلته ، رهين محبسيه ، يملئ
 (الفصول والغايات) وديوان (لزوم ما لا يلزم) ، وآثاره الأخرى
 فى الطور الثانى من حياته .
 الا أن يقال ان « أبا العلاء » رثى أباه بأخرة ، بعد موته

بسنيين ، وهو فرض مستبعد بشاهد من نص المروية ، حيث
الحديث عن احتضار الفقيه والليل ذاهب ، وعن وقع النعى على
الابن المفجوع ، والسؤال اليأس هل يسمع الراحل النداء ؟ :
كأن دعاء الموت باسمك نكرة

فرت جسدى والسم ينث في أذنى
ضعفت عن الاصبح والليل ذاهب

كما فنى المصباح في آخر الوهن
فهل أتت ان ناديت رمسك سامع

نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن
ومثل ذلك الحديث لا يكون ، الا واللوعة حارة ، والجرح
دام ، والعهد بالمصاب جد قريب ...

* * *

ولا يتم جلاء الموقف ، دون أن نفحص رواية « ياقوت »
محاولين التماس وجه الشبهة في قوله ان والد أبى العلاء توفى
بحمص سنة ٣٧٧ هـ .

ففى هذه السنة ، توفى أبو الحسن سليمان جد أبى العلاء .
وفى حمص كانت وفاته وهو على قضائها ، ودفن ظاهر باب
الرسن ، كما نص على ذلك « ابن العديم » .

فعل الأمر تشابه على « ياقوت » لوهم آخر وقع فيه ، حين
ذكر أن جد أبى العلاء « ولى القضاء بحمص وبها مات فى سنة
٢٩٠ هـ » وهو وهم تنبه اليه مصنفو (تعريف القدماء
بأبى العلاء) وقابلوه على ما فى (الخريدة) لابن العماد ، من

ولاية جد جد أبى العلاء للقضاء فى سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد
أيضا : أبى الحسن سليمان ، بن أحمد بن سليمان بن داود
ابن المطهر .

وبقى أن نقابله على ما فى (الانصاف) لابن العديم ، من
أن بعض الناس قالوا أن جد الجد ونى قضاء المعرة فى سنة ٢٩٠ هـ ،
وبعضهم يقول أن الذى تولى القضاء سنة ٢٩٠ هـ هو ابنه أبى بكر
محمد ، جد والد أبى العلاء .

ثم نضيف الى ذلك ما فى (الانصاف) أيضا ، من أن أبى العلاء
أخذ الحديث عن أبيه وجده سليمان بن محمد ، فكيف يأخذه عن
« مات فى حدود الثلاثمائة » قبل مولده بثلاث وستين سنة ؟

* * *

من هذا كله نضمن الى قول ابن العديم ، بوفاة عبد الله
ابن سليمان سنة ٣٩٥ هـ . وكانت وفاته بمعرة النعمان ، بشاهد
من نص المروية ، عن جوار أبيه لسكان ديار بعيدة من الحى ،
يعنى سكان القبور ، وليس أبعد منهم دارا وإن دفنوا فى الحى
وأقاموا ..

أحدى الراحين

تخيرتُ جهدى لو ملكت خيارا

وطيرت بعزى لو أصبت مطارا

(سقط الزند)

مات أبوه ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، قد استنفد طاقته فى تحدى محنته والاستعلاء عليها ، وأرهقه التمزق بين شد الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفتق بالصدمة من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، ويتهى للتطور الخطير الذى جدّ على حياته بعد ذلك بيضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر فى أن يلقى سلاحه ويلزم موضعه ويقر بأن العمى تقمة لا نعمة ، لكنه تردد فى الأمر ليلو نفسه ، وقد أشفق من أن تكون رغبته فى الاستسلام طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة باليأس كما خانهم وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون فى النفس بقية من أثر محاولته التى طالت ، وأن يظل فى مسمعه صدى من شعره الأول الذى مضى فيه على غلوائه يحاول أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه

مستطيع أن يرقى الى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوه منافس ،
أو يصل اليه نباح حاسد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجدد للصدمة الجديدة ، وأن
يطوى جرحها في أعماقه المثخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه
مع الدنيا ، فما كان من السهل أن يئد طموحه بغتة ، وأن يقهر
ما لبشريته من أشواق سيظل يكابدها ما عاش !

بل ليس ببعيد ، أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهم
تجلده ، وغشيه من دوارها ما خيل اليه أنه قادر على احتمال كل
ما تأتى به الدنيا من أصناف الرزايا ، وأعانه على ذلك أن أمه
بقيت له ، ولديها يجد العوض عن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقي
من عنت الأيام والليالي ...

وفي هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر في الرحلة
الى بغداد ، لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه أو مجاهدة الدنيا .
وأطال التفكير قبل أن يجمع أمره ويشد الرحال الى دار
السلام ، في أخريات عام ٣٩٨ هـ .

واستأذن أمه في السفر ، فأذنت فيه بعد أن أيقنت أنه جاد في
عزمه . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا ، كأنما حدثه القلب أنه
فراق لا لقاء بعده .

وودع أهل المعرة ، وكلهم عشيرة وجيران .
وخلف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أحد يدري ماذا
يستقبل في غده ، أو يعلم المخبوء له في الغيب المضمر ...

الفصل الثالث

في مفترق الطرق رحلة إلى بغداد

- مناخ العصر
- حديث الزهابي
- في خضم العاصمة
- حديث الأيادي
- موت الأم

مناخ العصر

هذى بضاع الناس معروضة
فخالطوا العالم أو فارقوا
(اللزوميات)

هنا تتمهل طويلا عند مفترق الطرق ، لترصد كل خطوة من تلك الرحلة التي عاد منها وقد أصدر على نفسه قرارا صارما بالعزلة عن الدنيا ، والحرمان من كل متعتها المادية .

وفي حياة كل أديب — وأكاد أقول : كل انسان — حادث حاسم يغير مجرى حياته ويحتكم في توجيه مصيرها .

ومن قديم سمعنا أن « امراً القيس » قال حين بلغه مصرع أبيه : اليوم خمر وغدا أمر !

أما أبو العلاء فليس في حياته خمر ولا ثأر ، وانما الذي فيها رحلة الى بغداد ، كانت بصريح عبارته وشهادة سلوكه وأقوال مؤرخيه : الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، انسانا وأديبا .

شطرين مختلفين ، شتان ما بينهما .

والاخباريون على كثرة من عنى منهم بالترجمة لأبى العلاء ، وعلى كثرة ما جاءوا به من أخباره وما رصدوا من آثاره ، لم

يعنوا بهذا الحادث الخطير في حياة أدينا الأكبر ، بل ان منهم من لم يشر اليها اطلاقا ، كأبى منصور الثعالبي والباخرزي ، وكلاهما من عصره ، والسمعاني وابن الجوزي وقد عاشا في القرن السادس ، قريبا من عصره .

أما الذين أشاروا اليها ، فبعضهم جاء بها خبرا عابرا في سياق الترجمة لأبى العلاء ، والتقط آخرون بعض أخبار عنها ، لا من حيث دلالتها على خطر الرحلة ، ولكن من حيث شهادتها لذكائه وحفظه ، أو صلتها بعقيدته . وجمع ابن العديم — المتوفى سنة ٦٦٠ هـ — ما تفرق من تلك الأخبار والمرويات ، في فصل من كتاب (الانصاف والتحري) عنوانه : « في ذكر رحلته الى بغداد وعوده الى معرة النعمان ، وانقطاعه عن الناس وتسمية نفسه رهين المحبسين — رحمه الله » وليس في الفصل محاولة ما ، لكشف سر الرحلة .

على أنهم أجمعوا على أن عزلته الصارمة بدأت برجوعه من بغداد الى معرة النعمان ، لا أعرف أحدا منهم خالف على ذلك أو تردد فيه .

كما أجمعوا على أن (سقط الزند) هو ديوان شعره قبل الرحلة ، أو كما قال « ياقوت » : « فيه شعر قيل في الدهر الأول ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت »

فاذا أخذنا (السقط) أثرا فنيا لأبى العلاء معبرا عن وجدانه في الشطر الأول من حياته ، بدا لنا منه شخص غير الذي عرفناه في (الفصول والغايات ، ولزوم ما لا يلزم ، ورسالة الغفران ، وملقى

السبيل ، ورسالة الملائكة) وغيرها من الآثار التي ثبت أنه أملاها في الشطر الثاني من حياته ...

ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نستبين أثر الرحلة البغدادية التي أحدثت ذلك التحول الحاسم في حياته انسانا ، وفنه أدبيا .

وبقدر ما لها من خطير الأثر نلتفت إليها ، ونحاول ما وسعنا الجهد أن نعرف كل ما حف بها من ظروف ، وأن نستخلص دلالة كل خبر مروى عنها ، ثم نلوذ آخر الأمر بأبى العلاء فيما لدينا من آثاره ، نسأله أن يفسر لنا بكلماته الصادقة سر هذه الرحلة ، وأن يقول الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها وما أهملوه ..

* * *

ولا بد هنا من استطراد يسير ، نطل به على ذلك العالم الذي خرج إليه أبو العلاء ، ونعرف المناخ الذي تنفس فيه ، ونستخلص صورة عامة لبغداد في عصره .

على أنا لا نستطيع أن نتحدث عن بغداد بمعزل عن الحياة العامة للدولة الإسلامية التي كانت بغداد عاصمة لها منذ بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ .

وأبو العلاء عاش ما بين عامي ٣٦٣ : ٤٤٩ هـ

وحين ندرس عصره فنقف به عند منتصف القرن الخامس لا تتجاوزه ، نرجع ببيدائه الى حوالي منتصف القرن الرابع ، قبل مولد أبى العلاء ، تقديرًا للمؤثرات القريبة التي شاركت في توجيه

مجرى الأحداث وتحديد سير الحياة العامة ، الى حيث قدر لها
في زمان أبى العلاء .

والنصف الثاني من القرن الرابع ، قد شهد بدء انهيار
الدويلات الفتية التي قامت في أقطار الدولة الاسلامية ، وكان لها
من القوة ما هيا لها الظفر بالاستقلال الذاتى مع التبعية الرسمية
لبغداد ، مركز الخلافة . كما كان لها دور واضح في النهوض
بالأقاليم ، في ظل ما يشبه اليوم نظام الحكم المحلى .

وكان من الممكن ، لو أسعفت الظروف وقبلت سنة الحياة ،
أن تقوى الدولة الاسلامية بقوة أقطارها ، لكن ضعف السلطان
المركزى في بغداد ، قد عجل بانهيار الدويلات القوية في الأطراف ،
حيث كان الأمراء ملزمين بالحرص على الارتباط الاسمى بخليفة
المسلمين ، احتفاظا بالمظهر الدينى لقيادة الجماهير المحكومة .
فكانوا يلتصقون بالسند الشرعى لعروشهم ، بولاء جبرى للخلافة ،
تدعيما لسلطتهم الاقليمية وكسبا لطاعة المحكومين . فاذا مات
الأمير وخلفته ذرية ضعاف ، ضاع التدبير وانهار الملك ، بعد
أعوام قد تعد بالعشرات ، وليست بشيء في أعمار الدول
والشعوب .

فكل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير
إذا اشترى تأييد الخليفة ، وكل مظهر من مظاهر الضعف في ولاية
الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم
ومنافسيهم ، بضربة باترة يباركها خليفة المسلمين ...
وكل عرش يموت أميره ، تتناول اليه الأعناق الشاعرة بفضل

قوة ، ولا على القوى أن يطأ الرءوس ويلغ في الدماء ، فان بغداد تستطيع أن تسند فعلته بصك شرعى !

والشعوب بمعزل عن هذا ...

تتفرج على الصراع الدائر ولا فرق عندها بين غالب ومغلوب.. والقرن الخامس قد شهد ترنج امارات الأقاليم تحت ضربات التنافس والتقاطع ، ولطمات الدس والكيد ، والعدو واقف بالمرصاد يتربص بها الدوائر .

وقلب الدولة بغداد ، قد وهى وتصدع ، فهمى فى عصر أبى العلاء مسرح للفتن والمغامرات ، وسوق للصفقات . وقد ضعف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها ، وتسלט الأتراك فأكثروا فيها الفساد .

وجلجلت أصوات بنحل دخيلة وملل طارئة ، من مشوية وحلولية وتناسخ وزندقة .. واحتدم الصراع الشعبوى والمذهبى ، واختلت الموازين وتاهت القيم .. وضريت الطبقة : فالثروة فى المجتمع المتصدع يستأثر بها أفراد معدودون ، والحقوق الاجتماعية لبشرية الناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل يأكل الأقوياء الضعفاء ، ونجم عن سوء الأوضاع الاقتصادية وفساد الحالة السياسية ، أمراض نعرفها ، فى سوء النظرة للحياة واقتطار المباغيات ، وظهر سوء الخلقية الفردية فيما شاع من نفاق ودجل ونفعية وصولية ، كما ظهر سوء الخلقية العامة فى تحلل الوحدة والتداعى لعمل غير صالح ، وفى تصارع المذاهب والقوى دون أن يكون فى الأمر شئ من حق مقرر أو قيم ثابتة أو نظام مستقر

أو تقاليد راسخة ، وانما هو تنازع عار على السلطة والجاه والثراء ،
بالقوة والاعتصاب أو بالمكر والحيلة ، أو بالنفاق والاستجداء .
وصار الدين الى لون مذهبي تؤثر عليه الأعراض الطارئة
ويتغير بتغير الأسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تتغير وتتبدل .
والحق أن هذا الفساد لم يكن طارئاً مستحدثاً ، وانما كانت
له بذور من قديم ، ظلت تعمل عملها في الخفاء وتنخر في أساس
الدولة ، لكنها في عصر أبي العلاء كانت قد نمت وترعرعت ، وآقت
أكلها السام المشؤم .

والحق كذلك أن أبا العلاء لم يكن قبل رحلته الى بغداد ،
بمعزل عن هذا كله .. فحلب من كبريات حواضر الشام ، والشام
من قديم يقف بين التيارات المتدافعة : كان في الجاهلية بين روم
وفرس وعرب ، وفي العصر الأموي بين الحجاز والعراق ، وفي
عصر أبي العلاء بين العباسيين والفاطميين ، والروم منهما غير
بعيد . وهو يتنفس في هذا الجو ، وعلى بابه تصطبغ الأمواج .
ولقد ولد في عنفوان المعركة سنة أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز
العبیدی الفاطمي ، وقطعت خطبة بنی العباس . يلتفت عن يمين
فاذا العراق غيراً بعيد منه ، فيه خلافة عباسية سنية قائمة ، بايعها
جمهور المسلمين ورسخها عمر طويل قارب ثلاثة قرون ، ويلتفت
الى يسار ، فاذا مصر قريبة منه واصله اليه ، قد استقرت فيها
دولة فاطمية قوية فتية ، في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها ،
ومن حولها التف الناقمون والطامحون والمرترقة المغامرون ،
وخفت بها احياءات غيبية وهمسات سرية ...

وحلب كانت تابعة للعباسية من عصرها الأول ، ثم استقلت بها الحمدانية استقلالاً ذاتياً مع التبعية الرسمية لبغداد ، وولد أبو العلاء ليشهد انطفاء الشعاع البارق ، وقد طويت الصفحات المجيدة التي كتبها « سيف الدولة الحمداني » بجهاده وبطولته ، ووضعت مكانها صفحات سود مكتوبة بالتخاذل والهزيمة والتمزق ، واستجداء المعونة من الروم ، الذين أمضى سيف الدولة حياته يجاهدكم ويدفعهم عن ديار العرب والاسلام . انتهى ذلك الملك الشامخ الى « أبي الفضل » حفيد سيف الدولة ، عام ٣٨١ هـ ، فسلبه منه « أبو نصر بن لؤلؤ » أحد موالى أبيه سعد الدولة ، ثم وثب على أبي نصر مولاه « فتح » فاعتصم في قلعة حلب وكاتب الخليفة الفاطمي العلوي بمصر فولاه عليها وأعطاه معها صيدا وبيروت ، على حين سار ابن لؤلؤ الى انطاكية — وهي يومئذ للروم — فأقام معهم بها . وظلت حلب تنتقل من يد الى يد ، حتى غزاها صالح بن مرداس عام ٤١٤ هـ ، واستقر بها بضع سنوات الى أن غزاه جيش الظاهر العلوي فقتله عام ٤٢٠ هـ ، وقتل معه ولده ، وأرسل رأسيهما الى مصر ! وفي عام ٤٢٢ هـ سار الروم الى حلب ومعهم حسان بن مفرج الطائي — وكان قد هرب اليهم اثر هزيمته من عسكر الظاهر العلوي ، على الأردن — وعلى رأس الأمير العربي علم فيه صليب ، ومن حوله جنود الروم يدخلون حلب ظافرين منتقمين ليذيقوا أهلها أهوال الأسر وذل السباء . ونجا أبو كامل شبل الدولة ، نصر بن صالح بن مرداس ، فسار الى حلب وحارب الروم عنها ، وظل يحكمها الى أن قتله

جيش المستنصر الفاطمي، في حماة سنة ٤٢٩ هـ . وتتابع جولات الصراع بين الولاة والحكام ، الى وفاة أبي العلاء ...



نقول : لم يكن أبو العلاء ، قبل رحلته الى بغداد ، بمعزل عن هذا الصراع الدائر هنا أو هناك .. وقد تقلنا فيما مر من حديثه ، قصائد حماسية من (سقط الزند) في المعارك بين العرب والروم ، وتقلنا كذلك من فخرياته ، ما ينم عن ضيقه بفساد العصر واختلال القيم واضطراب الموازين ...

لكنه فيما يبدو ، كان مشغولا الى حد كبير بمعركة تحديه وأمانى طموحه ، بحيث يمكن القول بأن احساسه بفساد الحياة العامة ، كان يتوارى خلف احساسه بهوموه وأمانيه ، تاركا مع ذلك رواسب في أعماقه ، لن تلبث أن تظهر في تأملاته وأماليه ، بعد أن خلا الى نفسه في عزلته ، وراح يرصد خلل العصر ويسجل افكاره على أمراض المجتمع .

ومهما يكن شعوره بما كان يجري في الشام ، فان المعترك في الاقليم لا يقاس بالذى في العاصمة صخباً واحتداماً وعنفاً ، وهو وان لم يفته لمح ما هناك على البعد ، فالذى لا شك فيه أن بغداد لم تفقد جاذبيتها وسحرها ، فهي عاصمة الدنيا ، وحاضرة العربية والاسلام ، وفيها أعلام العصر وأئمة الزمان ، وفيها حياة علمية وأدبية ، لم يحل دون نشاطها أنها لم تكن شعبية منظمة ، ولا قصد بها الى خدمة العلم ونشر الثقافة ، بقدر ما قصد بها الى استكمال مظهرية العظمة وأبهة السلطان ...

بل لعل هذا الوضع ، كان من أسباب نشاطها ودواعي رواجها : فقد جذب الى العاصمة حشدا كاثرا من الكتاب والعلماء والشعراء ، وطلاب الشهرة والجاه . وهناك وصل منهم من وصل الى منصب الوزارة ، ووقف آخرون على أبواب السادة الحكام والأمراء يستجدون فضلات موائدهم ، يحدوهم من مطلع القرن الرابع ، صوت زعيمهم المتنبي :
أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فانى أغنى منذ حين وتشرب !

والى هذا المعترك الصاخب ، مضى أبو العلاء ليجد نفسه هناك فى دوامة الموح الهادر !
وفى ذلك المناخ تنفس وأقام يختبر طاقته ويكتشف نفسه ،
الى أن انتهى الى عزلة وانفراد ...

حديث الذهب

فيا برق ليس الكرخ دارى وانما
رمانى اليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسال
(سقط الزند)

متى سافر الى بغداد ؟
ولماذا ألقى بنفسه — وهو الضير المستطيع بغيره — في
خضما المائج الهادر ؟
وماذا لقي فيها من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به الى
اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟
أما متى سافر ، فمن الاخباريين من قالوا سنة تسع وتسعين
وثلاثمائة ، كابن الجوزى والقفطى وأبى الفداء والذهبي .
ومنهم من قالوا : سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كابن
الأنبارى وياقوت والصدقى وابن حجر .

وهو خلاف يسير ، يمكن أن يفسره عندنا قول ابن العديم
انه « رحل الى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، ودخلها سنة

تسع وتسعين » فيكون الأولون قد جددوا الرحلة بوقت بدئها من المعرة ، وحددها الآخرون بعام وصوله الى بغداد .

ووهم « ابن خلكان » فجعلها في (الوفيات) رحلتين ، في عامي ٣٩٨ ، ٣٩٩ هـ ، وهو مالم يقله أحد سواه ، وليس في آثار أبي العلاء حديث الا عن رحلة واحدة لم تتكرر .

والذي يعنينا على كل حال ، هو أن أبا العلاء سافر الى بغداد ناضج الشباب فتى الرجولة ، في نحو السادسة والثلاثين من عمره ...

ولم سافر ؟

قيل « انه أودى في وقف له ، فرحل الى بغداد متظلماً من أمير حلب » وممن ذكر ذلك القفطى في (انباء الرواة) والذهبي في (تاريخ الاسلام)

لكنهم أمسكوا بعد ذلك ، فلم يأتوا بأى خبر يشير الى أنه تحدث في أمر هذا الوقف ، أثناء مقامه الذى طال ببغداد وامتد الى سنة ٤٠٠ هـ .

كما أن أبا العلاء نفسه ، لم يشر اطلاقاً الى ذلك الوقف ، فيما أطل من حديث عن رحلته التى قفى أن تكون متعلقة بمال ..

فهل كانت رحلته ، التماساً لسعة في الرزق ، واستكثاراً من النسب ؟

يبدو أنه كان -- لدى بعض القوم -- مظنة أن يفعل . شأنه في ذلك شأن الكثرة من العلماء والأدباء الذين رحلوا الى بغداد .

وذلك ما فاه مؤرخه « ابن العديم » بقوله : « ولم يرحل لطلب
دنيا ولا رفد » مستشهدا لذلك بقول أبي العلاء :

أخواننا بين الفرات وجلق

يد الله لا خيرتكم بمحال

أنبئكم أنى على العهد سالم

ووجهى لما يتذل بسؤال

وأنى تيممت العراق لغير ما

تيممه غيلان عند بلال

فأصبحت محسودا بفضلى وحده

على بعد أنصارى وقلة مالى

والأبيات من (سقط الزند)

وعاد أبو العلاء ، فنفى نفيا قاطعا أن يكون سافر استكثارا

من المال ، فى رسالته التى بعث بها الى أهل المعرة عند خروجه من

بغداد وقال فيها :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ... »

« .. والله يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما

لا أستحق .. وعرضوا على أموالهم عرض الجد ، فوجدونى غير

جذل بالصفات ولا هش الى معروف الأقبام » .

وأملى فى رسالته الى خاله أبى القاسم على بن سبيكة ،

مشيرا الى محاولة البغداديين قضاء حاجاته المادية ، حرصا على

بقائه بينهم :

« وكلما عرضوا قضاء حاجة أعرضتُ عن تكليف المشقة ،
لأنى أعتقد حكمة « زهير » فى قوله :
ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه

ولا يعفها يوما من الذل يسأم
« وأمرونى لرغبتهم فى صقبى منهم — أى جوارى — بأمر
تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة :
على حين أن ذكيت وبيض مفرقى
أُسَام الذى أعيت اذ أنا أمرد
أماوى ما يعنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجتُ يوما وضاق بها الصدر
وأبو العلاء عندنا المصدق ، وعبارته تشهد بأنه لم يكن يتكلف
رفض العطاء والمنة تجملًا ، وإنما هى عادة فيه وطبيعة !

فلعله اذن سافر يستزيد من العلم ، ويستكثر من عدد شيوخه
على مألوف عصره ، حيث كان العالم يعتز بكثرة من لقى من
الشيوخ ؟

ربما خطر ذلك بالبال ، لكن أبا العلاء ينفية كذلك نفيا قاطعا
فى رسالتيه اللتين أملأهما عند منصرفه من العراق ، فقال فى
أحدهما لخاله أبى القاسم :

« ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتماع
علم من عراقى ولا شامى .. وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير
سرب ، لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال . »

وقال في الأخرى لأهل المعرفة :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء

الرجال » .

فقيم اذن كان السفر ؟

أبو العلاء يصرح في رسالته الى خاله ، بأن الذى أقلمه الى تلك البلاد « مكان دار الكتب بها » كما يصرح في رسالته الى أهل بلده ، أنه انما أثر « الاقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، وهم يذكرون في تاريخه أنه لما وصل الى بغداد ، طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائنها . لكن بقى أن نسأل : اذا كانت هذه هى الغاية من الرحلة ، فقيم كان ذلك التحول الخطير فى حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر اليها ، وعرضت عليه كل الكتب التى طلبها هناك ؟ واذا صح ما ذكره ابن فضل الله العمرى فى (المسالك) من أنه لما أجيب الى طلبه « جعل لا يقرأ عليه كتاب الا حفظ جميع ما يقرأ عليه » أو ما ذكره الققطى فى (الانباء) من أنه « حضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئاً لم يره — من قبل — بدور العلم فى طرابلس ، سوى ديوان تيم اللات ، فاستعاره ، وخرج من بغداد وقد سها عن اعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده اليه » .

أقول : اذا صحت هذه الأخبار — وفى النصوص العلانية ما يؤيدها — فان الرحلة اذن تكون قد حققت غايتها ونجحت كل

النجاح ، بحيث يعوزنا ، مع هذا النجاح ، أن نفهم سر قراره بالعزلة والحرمان ، وهو في عز رجولته وعنفوان طموحه !
ولقد لقينا أبا العلاء في (سقط الزند) قبل رحلته ، وسمعناه يجادل بقصائده المرسفة في التحدى والمكابرة ، المعبرة عن طموح لا يعرف حدا يقف عنده ، وسمعنا معها قول المصيصي الشاعر : « لقيت بمعرة النعمان عجا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعتة يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمد غيري على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء » .

ومع الأيام والسنين ، نضج وعيه لذاته واكتشافه لنفسه وادراكه لمأساته ، لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدى الأيام « ومعاندة القدر » حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر الى بغداد ليبلو طاقته على المضى فى المقاومة .

وأغلب الظن أنه صفى حسابه مع طموحه قبل الرحلة ، فلم يستبق منه الا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى . وكانت قد ذاعت له منذ صباه شهرة اقليمية مبكرة ، ان لم يشهد بها ما مر بك من أخبار شبابه بالمعرة ، فان فى (سقط الزند) شواهد ناطقة بما أتيح له من تفوق على منافسيه ، وشعوره بأنه فاتهم جميعا بمواهبه ، فما عادوا قادرين على أن يبلغوا شأوه الا أن تختل الموازين وتضل المقاييس . وقد بقى ليسجل هذه الشهرة الاقليمية،

أن تعترف به بغداد ، وقد كان اعترافها مطمح كل عالم وأديب يجد في مواهبه أو علمه ما يؤهله للظفر بشهادة من حاضرة العربية والاسلام .

هكذا شد رحاله الى مدينة السلام ، يحدوه رجاء كبير في أن يفر من الهزيمة التي أحس بوادرها في أعماق نفسه ، وأمل عزيز في أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التي يملكها : ذكاء شبه أسطوري ، وفقه عميق لعلوم العربية والاسلام ، وموهبة أدبية أصيلة مبدعة . تلك كانت أسلحته في الجولة الحاسمة من معركته مع نفسه ومع الدنيا ..



طال عليه الطريق وأجهد السرى وهو يتعجل الوصول الى بغداد ، نافذ الصبر ضيق الصدر بكلال فاقتة ، ولم يذكر مؤرخوه من حديث الذهاب ، الا خبرا جىء به في معرض الكلام عن ذاكرته العجيبة : قيل انه مر وهو راكب بشجرة في طريقه الى بغداد ، فقال له من يقوده : طأطىء رأسك ، ففعل . حتى اذا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومر بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه ! فسئل في ذلك فأجاب : ها هنا شجرة . قالوا : ما هاهنا شيء ! ثم فحصوا الموضع فاذا أصل شجرة مجتثة . طأطىء رأسك !

ما أشقها من كلمة على الحس المرهف لهذا الضرير الذى يخرج لأول مرة الى خضم العالم الواسع ، وقد كان من قبل ألف

الحركة في حدود عالمه الصغير الضيق ما بين المعرة وحلب ، مهتديا بحسه الذكي وبصيرته الواعية ، ومترنما بمثل قوله في الدهر الأول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسرى ولو أن الظلام جحافل !

* * *

غير أن شح الأخبار عن رحلته ، يعوضه سخاء أبي العلاء في تسجيل كل خطواته وخواطره . وبين أيدينا في (سقط الزند) قصيدة مطولة ، أرسلها الى أبي حامد الاسفراييني — من أعلام بغداد — يسأله أن يكون دليله في متاهة العاصمة . أعنى قصيدته العينية التي مطلعها :

لا وضع للرحل الا بعد ايضاع
كيف شاهدت امضائي وازماعي
يا فاق جدي فقد أفنت أناك لي

صبري وعمرى وأحلامي وأنساعي^(١)
ومنها نعلم أنه أخذ طريق الأنبار والقادسية ، ثم عبر بادية الشام نحو بغداد ، كما نعلم ما تجشمه من مشاق السفر ووحشته في المهمة القفر :

سارت فزارت بنا الأنبار سالمة
تزجي وتدفع في موج ودقّاع

(١) الأحلاس جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهر البعير والأنساع جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

والقادسية أدتها الى نصر

طافوا بها فأناخوها بجعجاء

ورب ظمهر وصلناها على عجل

بعضرها ، في بعيد الورد لماع^(١)

بضربتين : لظهر الوجه واحدة

وللذراعين أخرى ذات اسراع^(٢)

وكم قصرنا صلاة غير نافلة

في مهمة كصلاة الكسف شعشاع

وما جهرنا ، ولم يصدح مؤذنا

من خوف كل طويل الرمح خداع^(٣)

الى أن قال :

وبالعراق رجال قريهم شرف

هاجرت في حبهم رهطى وأشياعى

اسمع أبا حامد ، فتيا قصدت بها

من زائر ، لجميل الود مبتاع

مؤدب النفس أكال على سغب

لحم النوائب شراب بأثقع

(١ ، ٢) يعنى الجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، فى وقت

واحد ، ترخصا ، والورد بعيد يلمع كالسراب ، بضربتين على الوجه
واليدى للتيمم .

(٣) يشير الى قطاع الطرق فى البادية المقفرة .

أرضي وأنصف إلا أنتى ربما
 أريت ، غير مجيز خرق اجماع (١)
 وذاك أنى أعطى الوسق منتحيا
 من المودة ، معطى الود بالصاع (٢)
 ولا أثقل فى جاء ولا ثشب
 ولو غدوت أخا عدم وادقاع
 من قال : صادق لئام الناس قلت له
 قول ابن أسلت : قد أبلغت أسماعى (٣)

* * *

مطيتى فى مكان لست آمنة
 على المطايا ، وسرحان له راع
 فارفع بكفى فانى طائش قدمى
 وامدد بضعى فانى ضيق باعى
 وما يكن فلك الحمد الجميل به
 وان أضيعت فانى شاكر داع

* * *

-
- (١) يعنى : أنصف برعاية حقوق المودة ، غير أنى ربما أريت وزدت فى المودة ، غير مجيز خرق الاجماع على تحريم الربا . وهو محرم بالنص والاجماع .
 (٢) الوسق : ستون صاعا . يفسر هنا معاملته بالربا ، بأن من أعطاه صاعا من المودة ، ضاعفه له فى الجزاء ستين صاعا !
 (٣) يشير الى قول أبى قيس بن الأسلت :
 قالت ، ولم تقصد القيل الخنا
 مهلا ، لقد أبلغت أسماعى

وحدد مؤرخوه ليوم وصوله الى بغداد ، ظرفا كئيبا لطم قلبه
الحساس لطمة قاسية . وأثقل هنا من وصفهم لمشهد وصوله :
« واتفق يوم وصوله الى بغداد موت الشريف الطاهر والد
الشرفيين الرضى المرتضى . فدخل أبو العلاء الى عزائه والناس
مجتمعون والمجلس غاص بأهله . فتخطى بعض الناس فقال له ،
ولم يعرفه : الى أين يا كلب ؟ قال : الكلب من لا يعرف للكلب
سبعين اسما ! ثم جلس في أخريات المجلس ، الى أن قام الشعراء
وأشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأشد — مرتجلا —
قصيدته في رثاء الفقيد :

* أودى فليت الحادثات كفاف *

فلما سمعه ولداه ، قاما اليه ورفعوا مجلسه وقالوا له : لعلك
أبو العلاء المعري ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه .
مأتم يستقبله يوم وصوله !
والكلب ، أول لقب تقدمه اليه بغداد ؟

ما أعجبه من اتفاق ! لكأنما وقعت الدنيا مترصدة تنتظر
مقدم ذلك المغرور ، لترده الى موضعه على الأرض ، بعد ما طال
مزعمه أن النجم دونه !
وأوى الى فراش غربته محزوناً يجتر همه ويلق جرحه ،
ويرنو عبر الظلام الدامس الى برق لاح له من ديار الشام فهاج
مواجهه .

هنا أيضا ، يسجل أبو العلاء أدق خواطره ، في لاميته الرائعة
التي أنكر فيها على الابل أن تعذبه بتحنانها ، رغم ستره لوجوهها

كيلا تلمح البرق المتعالى ! ولولا ما بينه وبينها من تعاطف ، لأمر
صاحبه فذبحها ، كي ينجو مما تشير فيه من لواعج الحنين وأشجان
الغربة ، وهيهات هيهات !

طربن لضوء البارق المتعالى

بيغداد وهنا ، ما لهن ومالي ؟

سمت نحوه الأبصار حتى كأنها

بناريه ، من هتّا وثم ، صوالى

إذا طال عنها سرها لو رعوسها

تمد اليه فى رعوس عوالى

تمنت « قويقا » والصراة حيالها

تراب لها ، من أينق وجمال (١)

إذا لاح ايباض سترت وجوهها

كأنى عمرو والمطى سعالى (٢)

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا

الى الشام ، لولا حبسه بعقال

ولولا حفاظى قلت للمرء صاحبى

بسيفك قيّدها فلست أبالى

(١) قويق : نهر بحلب . والصراة : نهر ببغداد .

(٢) من أساطير العرب ما زعموا أن عمرو بن يربوع بن حنظله ،
تزوج السعلاة — أنثى الغول — فقيل له : انك سترها خير امرأة
ما لم تر برقاً فانها إذا رأت البرق لم تلبث مكانها . فكان عمرو إذا
لاح برق سترها عنه ، الى أن غفل ليلة ولاح البرق ، فاندفعت
لا تلتوى على زوج أو ولد ، وقالت :

أمسك بنيك عمرو انى أبق برق على أرض السعالى ألق !

أَبغى لها شرا ولم أر مثلهـ
سفائر ليل أو سفائن آل
لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى
فهل زار هذى الابلَ طيفَ خيال
لعل كراها قد أراها جذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضال
ومسرحها فى ظل أحوى كأنها
إذا أظهرت فيه ، ذوات حجال
حللنا بأسنان الكهول ، وهذه
شوارف تزهاها حلوم افال
ترى العود منها باكيا فكأنه
فصيل ، حماه الخلف ربّ عيال (١)
ستتسى مياها بالفلاة نميرة
كنسيانها وردا بعين ائال (٢)
وان ذهلت عما أجن صدورها
فقد ألهمت وجدا صدور رجال
ولو وضعت فى دجلة الهام لم تفق
من الجرع الا والقلوب خوال

(١) العود : المسن من الابل . والخلف : الضرع
(٢) عين ائال : عين تردها الوحوش . يعنى نسيان الابل عهد
توحشها

تلون زبورا في الحنين منزلاً
 عليهن ، فيه الصبر غير حلال
 بكى سامري الجفن ان لامس الكرى
 له هدب جفن مسه بسجال
 تهاداني الأرواح حتى تحظى
 على يد ريح بالفرات شمال
 فيا برق ليس الكرخ داري وانما
 رمانى اليه اندهر منذ ليل
 فهل فيك من برق المعرة قطرة
 نغيث بها ضآن ليس بسال
 أخواننا بين الفرات وخلق
 يد الله ، لا خبرتكم بمحال
 أنبئكم أنى على العهد سالم
 ووجهي لما يتذلل بسؤال
 وأنى تيمست العراق لغير ما
 تيممه غيلان عند بلال (١)
 فأصبحت محسودا بفضل وحده
 على بعد أنصاري وقلة مالي
 ندمت على أرض العواصم بعدما
 غدوت بها في السؤم غير مغالي (٢)

(١) غيلان : ذو الرمة ، الشاعر الأموي المشهور . وبلال :

ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري . ولي الكوفة ، واليه قصد غيلان .

(٢) العواصم : حصون من حلب الى حماة ، منها المعرة .

أروح فلا أخشى المناسيا وأتقى
تدنس عرض أو ذميم فعال
إذا ما جبال من خليل تصرمت
علقت بخلٍ غيره بجبال
ولو أنتى فى هالة البدر قاعد

لما هاب يومى رفعتى وجلالى
فى النفس اذن بقية من طموح واعتداد ، ما تزال تعينه على
محنته ، وتمده بطاقة من الاحتمال لما أحس من هم وكرب ، بعد
أن رماه الدهر الى الكرخ « منذ ليل » ! وليس الكرخ داره كما
قال ..

فليطو اذن حنينه الطاغى ، وليطو معه ما أحس من وقع
لفظ « الكلب » على وجدائه المرهف ، وهو على كل حال لم يلق
اللفظ الجارح صامتا ، بل أخرج من جعبته سلاحه : الكلب من
لا يعرف للكلب سبعين اسما ..

وأرضاه أن سمع ما اطمأن به الى أن شهرته قد سبقته الى
بغداد ، اذ سأله الشريفان : لعلك أبو العلاء المعرى ..
أجل ، انه هو .. الذى يعرف للكلب سبعين اسما ، والذى
يرتجل مرثية فى الشريف الطاهر ، فيجذب الأسماع والقلوب ،
ويحظى بالاكبار والاحترام !

في خضمّ العاصمة

فيادارها بالحزن ان مزارها
قريب ، ولكن دون ذلك أهوال
تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أنى بالعراق على شفى
زرى الأمانى ، لا أئيس ولا مال
(سقط الزند)

في محلة (القطيعة) على شط دجلة كان منزله ...
ومن ماله الذى حمله معه من المعرة ، كان يدبر ضرورات
عيشه . واليه توافد الناس في أول الأمر ، يختبرونه .
فلم يكن البغداديون بحيث يكتفون بشهادة اقليمية يحملها
أبو العلاء معه من خارج العاصمة أو تسبقه اليها ، فالذى يهر
الناس في المعرة أو حلب ، قد يكون في العاصمة الكبرى غير
لافت ولا مثير ، ولا بد من أن يكون لأهل بغداد الكلمة الحاسمة
فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه وذكائه .
وفي الخبر أنهم أعدوا له امتحانا ، أشار اليه غير واحد من

المؤرخين ، ومنهم « ابن فضل الله العمري » الذي قال في (مسالك الأبصار) :

« ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستور الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياومة وهو يسمع الى أن فرغوا ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه له . »

وهكذا اجتاز الامتحان بنجاح .
وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان في حفظه وعلمه باللغة ، كما شهدوا له شاعرا أصيلا مبدعا ، بقراءتهم عليه ديوانه (سقط الزند) بعد وصوله الى بغداد .

وبدا له أن المعركة توشك أن تنتهي بما خامره من رجاء في الإقامة حيث أراد ببغداد . مرفوع المكاثة كريم الموضع .
وكانت فعلا على وشك الانتهاء الى ذروتها الحاسمة ، لكن ليس على الوجه الذي توهمه أو رجاء :

دخل خزائن العلم وعرض عليه كل ما فيها من كتب فوعاها حفظا . أو كما قالوا ، لم يلق فيها ما يحمله معه الا ديوانا واحدا استعاره من بيت الحكمة ، وهو ديوان شعر قبيلته تيم اللات ، ولبت الى ما بعد سنين طوال « يذكر جولته بين الوراقين في مدينة السلام ، ويسترجع ذكرياته هناك ، فمما أملاه في (رسالة الغفران) بعد ربع قرن من رحلته الى بغداد ..

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية « على بن زيد » :

بكر العاذلات في غلس الصب

ح يقولون لى أما تستيق

ودعا بالصبح فجرا فجاءت

قينة في يمينها ايريق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطلبت في ديوان « عدى » فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلا من أهالى أسترا باذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادى — عدى — ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم .

وأحب أبو العلاء بغداد ، لما شغفه من خزائن الكتب فيها ، فضلا عن نشاط مجالسها العلمية حيث يتاح له التألق والظهور .

وظن أن « الزمان يسعفه على المقام بها » كما قال ...

لكن ظنه خاب !

وإذا كان لم يلق سلاحه يوم دخل بغداد فاستقبله ماتم الشريف الظاهر وصكت سمعه الكلمة الجارحة ، فإن الأيام كانت تدخر له ما هو أقسى وأمر :

ذكر ابن الأنبارى فى (نزهة الألبا) وغيره ، أن أبا العلاء قصد مجلس امام النحو ببغداد : أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، فلما استئذن له قال أبو الحسن : ليصعد الاصطبل . — وهو الأعمى بلغة أهل الشام فيما ذكر ياقوت فى (معجبه) والصفدى فى (نكت الهميان) .

وانصرف « أبو العلاء » من فوره لم يلق أبا الحسن ، وفى

قلبه أثر السهم الجارح جاءه هذه المرة من عالم امام ، وليس من رجل من العامة — يجهله — في مأتم الشريف .

وتركها تقوت * وما يزال في طاقته بقية احتمال .

ثم كانت الطعنة النافذة ، من يد الشريف المرتضى نفسه ، ذاك الذى أكرم أبا العلاء ورفع موضعه ، عندما أشد مرثيته في مأتم أبيه الشريف الطاهر .

يذكرون أن أبا العلاء « كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قصيدته :

* لك يا منازل في القلوب منازل *

لكفاه فضلا . فغضب السيد المرتضى وأمر فسُحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه . وقال لمن يحضرونه : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره . قالوا : النقيب السيد أعرف . فقال : أراد قوله :
واذا أتتك مذمتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

« ولما رجع الى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى نفسه رهين الحسين » .

أنفوت هذه أيضا ؟

أن يكون تحامل على نفسه ولم يخرج فورا من بغداد اثر طرده من مجلس نقيب الأشراف ، مهانا مسحوبا من رجله ، فلا بد أنه كان يشق على نفسه بأكثر مما فى طاقتها أن تتحملة .

ولكن الذى لا ريب فيه عندنا ، أنه اذا كان لم ينسحب من
المعركة فى الظاهر ، فقد انسحب منها نفسيا وبدأ يحس التعب
والكلال ، ويصغى بملء وجدانه الجريح ، الى قصيدة أرسلها اليه
من المعرة ، أخوه « أبو الهيثم عبد الواحد » واستعطفه على من
خلف بالشام ، ناقما على بغداد أن اجتذبت ببريقها الخادع ،
ذلك الماجد الأبى الكريم . وهى قصيدة مطولة ، نقل منها ابن
العديم فى (الانصاف) أربعة وثلاثين بيتا ، وفيها يقول أبو الهيثم:
بغداد لا سقيت ربوعك ديمة

وغدت رياضك حنظلا ومرارا
أفت العروس يروق ظاهر أمرها
وتكون شينا فى اليقين وعارا
أضمرت قلبى باجتذابك ماجدا
كالسيف أعجب رونقا وغرارا
منيته محضا فلما شفاه
ظما أذاك به ، سقيت سمارا
وجذبت به فأتاك يعتسف الردى
ويخوض منه لجة وغمارا
شغفا بدار العلم فيك ، وقلبه
ما زال رعبا للعلوم ودارا
ما زدت عما عنده ، فسقاك من
رفع السماء نقيصة وعثارا

أبأ العلاء ، نداءً عبد أدركت
منه النوى لما نأت بك ثارا
حاشاك أن تبدى الجفاء لخله
وتعيد أقران الوفاء قصارا
أدرك بادراك المعرة مهجة
تفنى عليك مخافة وحذارا
بلغت بك الهمم المراد فأياست
منك الحسود ولم تنط بك عارا
فأقمت في الزوراء ثم غدوت في
أفق المفار كوكبا سيارا
فاجنح على مرضاة ربك طالبا
منه الجزاء وجانب الاصرارا
واسلم لقومك اذ غدوت لمجدهم
تاجا تشرف فضله وسوارا
فهل كانت أنباء أبى العلاء في غربته ، وما يلقي من خبث الناس
وشرهم ، تصل الى أهله بالمعرة فتحزنهم وتكربهم ؟ أو كان
أبو الهيثم — وهو من أقرب الأهل الى أخيه وأعرفهم بخلقه
وطبعه — يتمثل حال الغريب النازح ، فيشفق عليه من المقام في
بلد تسرح فيه ثعالب الانس وذئاب البشر ؟
كلا الفرضين محتمل ...
وأقام بعد ذلك ما أقام في بغداد ، وهو يعيد النظر فيما تزود
به لبغداد من عدة :

الأدب ؟

لا جدوى منه الا اذا عزف للسلطان وتمرغ على أعتاب
السادة ذوى الجاه والنفوذ . وقد أكرمه نقيب الأشراف حين
وقف فى مأتم والده يعدد مناقبه ويذكر كريم سجاياه ، ثم أهانه
وأذله ، حين جهر برأى له فى شاعر ، يخالف رأى السيد النقيب
الشريف !

العلم ؟

ان مجتمع العاصمة فى عصره ، يقدر من يعرف كيف يأتى
بالثعلب أو الذئب من ذيله ، أكثر من تقديره لمن يعرف للكلب
سبعين اسما أو ثمانين ...

العفة والاباء والصدق ؟

يا لها من بضاعة نافقة ، فى سوق يروج فيها النفاق والزيف ،
فهى لا تسمح بكلمة حرة تقال فى مثل مجلس الشريف المرتضى ،
مخالفة لرأيه .. بل تلفظها وترفضها ، لتخلى المكان لقول شهود
المجلس ، وهم خبراء بالسوق والبضاعة :
« السيد النقيب أعرف ! »

وأجمع أمره على العزلة وهو ما يزال فى خضم المعترك ، وقد
عرف أن أسلحته مفلولة ، تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها ، من
مكر الحيلة ونعومة المداينة ولؤم النفاق !
وأحسن ألا مكان له فى دنيا الناس ، وقد أعوزته عمى البصيرة

وبلادة الشعور والضمير ، ومرونة في الخلق والطبع يتلون بها في
موكب المنافقين والمهرجين ..

وبدأت رحلة الاياب ، وهو في بغداد مقيم ...
بل انه ودعها ، وداع محزون لفرافها ، في قصيدة أنشدها
وهو ببغداد ، تهنئة بمولود لصديقه أبي القاسم بن القاضي
التنوخى ، فقال :

ولولا ما تكلفنا الليالى

لطال القول واتصل الروى

اذا تأت العراق بنا المطايا

فلا كنا ولا كان المطى

على الدنيا السلام فما حياة

اذا فارقتكم الا نعى

وكذلك قال ، وهو ببغداد ، من قصيدة الى أبى على

النهاوندى ، محمد بن محمد بن فورجة :

كفى بشحوب أوجهننا دليلا

على ازماعنا عنك الرحلا

أبت صنفا النواعب من نياق

وطير ، أن تقيم وأن تقيلا

تأملنا الزمان فما وجدنا

الى طيب الحياة به سيلا

يفجعنا ابن دأية بابن أنس

تفارقه ، فلا تبِع الحمولا

كلفنا بالعراق ونحن شرح
 فلم نلهم به الا كهولا
 وردنا ماء دجلة خير ماء
 وزرنا أشرف الشجر النخيل
 وأبنا بالليل وما اشتقينا
 وغاية كل شيء أن يزولا
 واستسلم للهزيمة نفسيا قبل انسحابه من بغداد ، حين أدرك
 بملء يقينه أن المكابرة ضالة ، وأن الأمل في النصر سراب ، وأن
 النضال عقيم ..
 وانه لفي العاصمة غريب غريب ، ظامئ والورد قريب ،
 يتمنى لو أن الخمر حلت لنشوة تذهله عما يكابد من وحدة وضيق :
 فيادارها بالحزن ان مزارها
 قريب ولكن دون ذلك أهوال
 اذا نحن أهللنا بنؤيك ساءقا
 فهلا بوجه المالكية اهلال
 تسيء بنا يقظي فأما اذا سرت
 رقادا ، فاحسان الينا واجمال
 وغنت لنا في دار سابور قينة
 من الورق مطراب الأصائل ميهال
 رأت زهرا غضا فهاجت بمزهر
 مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

فقلت : تغنى كيف شئت فانما
 غناؤك عندي يا حمامة اموال
 تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
 تجهلنى كيف أطمأنت بى الحال
 فأذهل أنى بالعراق على شفى
 زرى الأمانى لا أئيس ولا مال
 مقتل من الأهلين سر وأسرة
 كفى حزنا بين "مُشيت" واقلال
 متى سألت بغداد عنى وأهلها
 فانى عن أهل العواصم سأل
 اذا جن ليلى جن لى وزائد
 خفوق فؤادى كلما خفق الآل
 وماء بلادى كان أنجع مشربا
 ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
 فيا وطنى ان فاتنى بك سابق
 من الدهر فلينعم لساكنك البال
 فإن أستطع فى الحشر آتاك زائرا
 وهيهات ، لى يوم القيامة أشغال

حديث الإياب

« وهو أمر شرى عليه بليل .. ليس بنتيج الساعة » ولا ريب
الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب المتقدمة وسليل الفكر
الطويل . »

(من رسالته الى أهل المعرة)

على هذا النحو كان انسحابه النفسى من بغداد قبل أن يحمل
شبابه المدبر المقهور ورجاءه الخائب الضائع ، ليعود من حيث
جاء الى محبسه بمعرة النعمان .

ولم تكن هناك حاجة قط ، الى مطاردة من فقهاء بغداد تخرجه
منها طريدا منهزما . أعنى المطاردة التى أشار اليها « ابن كثير » فى
(البداية والنهاية) والبدر العينى فى (عقد الجمان) . وموجز
حكايتها أن فقهاء بغداد تعرضوا لقوله فى اليد ديتها خمسمائة
دينار ذهبا ، وتقطع فى السرقة ولو كان المسروق ربع دينار :

بد بخمس مئين عسجد ووديت
ما بالها قطعت فى ربع دينار

تناقض ما لنا الا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بغداد طريدا منهزما ،
ورجع الى بلده ولزم منزله فكان لا يخرج منه » .
وابن كثير توفي سنة ٧٧٤ هـ ، والعيني توفي سنة ٨٥٥ هـ ،
والخبر مرسل بلا اسناد ، فلسنا نعرف كيف وصل الى القرنين
الثامن والتاسع ، ولم يذكره معاصرو أبي العلاء من المؤرخين
والاخباريين ، كالثعالبي والخطيب البغدادي والباخرزي وابن
الانباري . وجاء «الصفدي» بالبيتين — وهما من اللزوميات —
دون أن يحدد للحادثة زمانا أو مكانا . على حين ساق « ابن حجر »
المعاصر للعيني ، الخبر على صورة أخرى لا صلة لها بالرحلة
البغدادية .

ونسأل أبا العلاء عن هذه المطاردة من الفقهاء ، فلا نجد لديه
اشارة اليها أو كلمة عنها ، وانما الحديث عنده عن مطاردة أخرى
من نفسه ، ألحت عليه في الاياب ، وحاول عبثا أن يطاولها
أو يتجاهلها ، ثم لم يجد مفرا من الاستسلام حين لم تعد تجدى
مطاوله أو عناد .

وأملى من رسالته الى أهل المعرة ، عند انصرافه من العراق :
« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب الى السكن المقيم
بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان ،
خص به من عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها
ولا ألهمها .

« أما الآن فهذه مناجاتي اياهم منصرفي عن العراق ، مجتمع
أهل الجبال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحادثة فاقضت ،

وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره
وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة ، عزلة تجعلني
من الناس كبارح الأروى من سائح النعام . وما أَلَوْتُ نصيحة
لنفسى ولا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزى . فأجمعت على
ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ،
فكلهم رآه حزما وعدّه اذا تم رشدا . وهو أمر شرى عليه بليل ،
قضى بيقة .. ليس بتتيج الساعة ولا ريبب الشهر والسنة ، ولكنه
غذى الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل ..

« وما سمحت القرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نبذة
كنبذة فتيق النجوم ، واتقضاها من العالم .. وثباتا في البلد ان
حال أهله من خوف الروم ..

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء
الرجال ، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أقفس مكان
لم يسعف الزمن باقامتى فيه . والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما
استأثر به الزمان

« ويحسن — الله — جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني
بما لا أستحق ، وشهدوا لى بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا
على أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذل بالصفات ،
ولا هش الى معروف الأقسام . ورحلت وهم لرحيلى كارهون ،
وحسبى الله وعليه يتوكل المتوكلون » .

والرسالة صريحة في الكشف عن مطاردة من نفسه — لا من

فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها وتفكيره فيها ، حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون . وسنقرأ في رسالته الى خاله بعد قليل ، أنهم أظهروا الحزن لفراقه ، وتشبثوا به ، وودعوه باكين ، وكان أشد منهم حزناً على فراق بغداد وأصحابه بها . وقال يودعها ويودعهم من قصيدة مطولة بالسقط :

نبى من الغربان ليس على شرع
يخبرنا أن الشعوب الى الصدع

أصدقه في مِرية وقد امترت
صحابة موسى بعد آياته التسع

كان بفيه كاهنا أو منجما
يحدثنا عما لقينا من الفجع

أودعكم يا أهل بغداد والحشا
على زفرات ما ينين من اللذع

وداع ضناً لم يستقل وانما
تحامل من بعد العثار على ظلع

فبئس البديل الشام منكم وأهله
على أنهم قومي وبينهم ربعي

ألا زودوني شربة ولو اننى
قدرت ، اذن أفنيت دجلة بالجرع

أبيت فلم أطعم نقيع فراقكم
مطاوعة حتى غلبت على النشع

لبست حدادا بعدكم كل ليلة
 من الدهم، لا الغر الحسان ولا الدرع
 أظن الليالى وهى خود غوادر
 بردى الى بغداد ضيقة الذرع
 وكان اختياري أن أموت لديكم
 حميدا ، فما ألفت ذلك فى الوسع
 فليت حمامى حُمّ لى فى بلادكم
 وجالت رمامى فى رياحكم المسع
 فدوئكم خفض الحياة فانتا
 نصبنا المطايا بالفلاة على القطع

* * *

وحدد « أبو العلاء » تاريخ انسحابه من بغداد باليوم والشهر
 والسنة « عام أربعمائة ، لست ليال بقين من رمضان » فأغفى
 مؤرخيه وأعفانا من التخبط فى متاهة المرويات .
 كما حدد طريق الاياب :

سلك طريق الموصل وميافارقين ، ثم نزل بالحسنية ووصل
 بعدها الى آمد . وقد مر فى طريقه بطرف حلب الشهباء فلم
 يدخلها — وفيها أخواله — اصرارا على ما اعتزم من عزلة
 وانفراد .

وكانت الرحلة شاقة مضنية فيما وصف ، جمعت الى أخطار
 الطريق وعناء السفر ، أثقال انكساره وعبء همومه النفسية ،

وأعوزها الأمل الذي كان يحدوه في طريق الذهاب ، فيعيّنه على مشاق الرحلة .

وبعض مؤرخيه ، يذكر من حديث اياه أنه مر بموضع في الطريق فطأ رأسه ، ولما سئل في ذلك قال : أما هاهنا شجرة ؟ وكان قد مضى على مروره بهذا الموضع عام وبعض عام ، وما يزال يذكر قولهم له : طأطأ رأسك !

فان صح الخبر ، فهذا هو يفعل من تلقاء نفسه ، فيسمع أن الشجرة قد اجتثت من موضعها وما عاد في حاجة الى أن يحترس . لكن آثار هزيمته لم تجث من نفسه ، فليطأطأ رأسه مقرا بها ، مستسلما لما تصنع به الأيام والليالي ..
بلا عناد ولا مكابرة !

واذا اتهمنا خبر الشجرة ، فلدينا على كل حال ما يغنيانا عنه ، من حديث لأبي العلاء عن رحلته ، سجله في رسالته الى خاله أبي القاسم على ، وكشف به عما كان يظنيه ويرهقه من آثار الهزيمة والانكسار :

« وجدت بغداد كجناح الأخيل ، حسن وليس فيه ما حمل :

ان العراق لأهلى لم يكن وطننا

وبالباب دون أبي غسان مسدود

« لنفسي أقول : أعيتني بأشر فكيف بدردر ، وعصيتني من

شب الى دب . ليس بعشك فادرجي ، هذا أحق منزل بترك ،
الصيف ضيعت اللبن ، الربيع أغفلت الكمأة ، وعلى المفازة
أرقت السقاء ، غودى الى مباركك ..

« وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالاقامة هناك ، فاذا
الضارية أحجاً بعراقها ، والأمة أبخل بصربتها ، والعبد أشح
بكراعه ، والغراب أضن بثمرته . ووجدت العلم ببغداد أكثر من
الحصى عند جمرة العقبة .. ولكن على كل خير مانع ..
إذا لم تستطع شيئاً فذرهُ وجاوزهُ الى ما تستطيع
يكفيك ما بلغك المحل . ان عجز ظِلٌّ عن شخصك فلا يعجزن
عن عضو منك ...

« وكلما عرضوا على حاجة أعرضت عن تكليف المشقة ، لأنى
أعتقد حكمة زهير فى قوله :
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه

ولا يعفها يوماً من الذل يسأم
ولو علمت أنى أرجع على قروائى ، لم أتوجه لهذه الجهة ،
ولكن البلاء موكل بالمنطق ، والخيرة مغيبة .. لا يدرى الرجل بم
يولع هرمه ، ولا الى أى أجمة يسوقه جده : (ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مستنى السوء) .

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فلقد أفردونى بحسن
المعاملة وأثنوا على فى الغيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة .
ولما آنسوا تشميرى للرحيل وأحسوا بتأهبى للظعن ، أظهروا
كسوف بال وقالوا من جميل كل مقال ، وتلقعوا من الأسف ببرد
فشيبي ، وذرفت عيون أشياخ شيب ، فلا اله الا الله ، أى فابته
ليست لها راعية ...

« وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم بأمور تنهى عنها القناعة
وتكف دونها العادة ..

على حين أن ذكيت وايض مفرقي
أسام الذي أعيت إذ أنا أمرد
أماوي ما يغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
والله يحسن جزاءهم ، ان كان ما فعلوه حفاظا فهو منة
عظيمة ، وان كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفت وماء وجهي
في سقاء غير سرب ، ما أرقط منه قطرة في طلب أدب ولا مال .
ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسي باجتماع علم من
عراقي ولا شامي (من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له
وليا مرشدا) .

والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها :
ولست وان أحببت من يسكن الغضى

بأول راج حاجة لا ينالها
شرفا لذلك منزلا ، وللساكنين به تفرا ، ولماء دجلة واديا
ومشربا :

واني وتهيامي بعزة بعدما
تخلت من جبل الهوى وتخلت
لكالمبتغى ظل الغمامة كلما

تبوأ منها بالمقيل اضمحلت
وكنت اذا خبرت رجلا بمسيرى بانث فيه كآبة ، وبدت عليه

كبوة ، فكتمت ذلك عنهم كتمان المرأة ضررتها بالغيب ما فى جسدها
من سوء وعيب ، فلما علق حرباء البين تتضبته ، ووقف صرد
الفراق موقعه ، كنت واياهم كأبى قابوس وبنى رواحة :
قال لهم خيرا وأثنى عليهم

وودعهم وداع أن لا تلاقيا
وسرت عن بغداد لست بقين من شهر رمضان ، سيرا تنحط
إبله وتثبط نسوعه وتوقع الغرق سفنه .. التمرات ثم ينجلين !
ومررت بطرف الشهباء لأنى سلكت طريق الموصل وميافارقين ...
وردت مياها ملحمة فكرهتها

فسقيا لأهلى الأولين ومائيا
« ... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال وحامل الرمال ،
وقل بلاء الغادى أين قال ^(١) ، والرائح أين عرس وبات . فلم نزل
كذلك حتى بلغنا آمد ، ثم عادت السبيل الى غوائلها ...

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، أجمعت على ائفراد يجعلنى
كالطبي فى الكناس ، ويقطع ما بينى وبين الناس ، الا من وصلنى
الله به وصل الذراع باليد والليلة بالغد » ..

وتلفتنا هنا نعمة التواضع فى اعتراف أبى العلاء « بالنظر
والطبقة » وعدم احتفاله بصفات التكريم ، وقد كان صوته قبل
الرحلة ، يجلجل بمثل ما سمعت من فخرياته ..

وقد سجل فى الرسالة ، وفى رسالته الأخرى الى أهل المعرفة ،
شهادة العاصمة له بالفضل والعلم ، بما يؤكد لدينا أن رحلته ام

(١) من القيلولة .

تكن لهذا وحده ، وانما كانت الشهادة المرجوة بعض ما يتعلق به في معركته مع نفسه ، عندما أراد أن يستبين مدى طاقتها على المضي في المقاومة والتحدى والاستعلاء ، والا فلو كانت شهادة بغداد كل غايته ومبتغاه ، لأرضاه ظفروه بها ، ولما عاد الى المعرة مهزوما مطاردا ، لا من فقهاء بغداد ، ولكن من نفسه !

وأبو العلاء يسجل هنا ، اعترافه الصريح بأنه لم يزهد في بغداد كما زعم بعض دارسيه ؛ ولم ينصرف عنها طيِّبَ خاطر ؛ وانما أحبها حبا صادقا وتمنى لو أسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أعوزته الحيلة والوسيلة . وأدرك بعد فوات الأوان أنه لم يتزود لمجتمع العاصمة بالزاد الصالح والعدة الملائمة . فلقد شب عن الطوق ، وما عاد في استطاعته أن يغير طبعه ويطوع نفسه لغير ما خلقت له ، ويروضها على غير ما جبلت عليه ، وهو كما قال في رسالته الى خاله : وحشى الغريزة انسى الولادة . وقد كلفوه هناك ما ليس من طبعه ، وأرادوا أن يحملوه على أمور » تنهى عنها القناعة وتكلف دونها العادة « وساموه ، وقد جاوز سن القوة والشباب ، ما أعياه أن يسام وهو أمرد ...

وسيظل يذكر بغداد ، ويلتفت اليها من وراء أسوار عزلته ، ويحن الى من ترك هناك من صفوة الأصحاب . فيقول من قصيدة أرسلها الى صديقه أبي القاسم بن المحسن التنوخي :

يا عارضا راح تحدوه بوارقه

للكرخ سئمت من غيث وثجئتي

لنا ببغداد من نهوى تحيته
فان تحملتها عنا فحييتنا
يا ابن المحسن ما أنسيت مكرمة
فاذكر مودتنا ان كنت أنسيت
سقيا لدجلة ، والدنيا مفرقة
حتى يعود اجتماع النجم تشيتنا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر
كأنما أنا من أصحاب طالوتا (١)
رحلت لم آت « قرواشا » أزاوله
ولا « المهذب » أبغى النيل تقويتنا (٢)
والموت أحسن بالنفس التى ألفت
عز القناعة من أن تسأل القوتا
بنت الزمان: جبالى من جبالكم
أعزز علىّ بكون الوصل مبتوتا
أعدّ من صلواتى حفظ عهدكم
ان الصلاة كتاب كان موقوتا
وقال فى قصيدته الى خازن دار العلم ببغداد :
رجوت لهم أن يقربوا فتباعدوا
وأن لا يشطوا فى المزار فقد شطوا

(١) يشير الى الآية الكريمة : (فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى)
(٢) قرواش : اسم والى أمر بغداد - المهذب : وزيره .

خليلي لا يخفى انحساري عن الصبا
 فحلاّ اساري قد أضرب بيّ الربط
 ولى حاجة عند العراق وأهله
 فان تقضيها فالجزاء هو الشرط
 سهلا علماء الجانين وفتية
 أبنوهما حتى مفارقهم شُبط
 أعينهم علم السلوك لسائل
 به الركب لم يعرف أماكنه قط
 وهل ينشطني من عقالي اليكم
 رضا زمني ، أم كل شيمته سخط
 وان خلطتني بالتراب منية
 فبعض ترابي من مودتكم خلط
 وكتب بعد سنين يذكر أحد أصدقائه ، بأيام بغداد ، ومنزله
 بالقطيعة :
 أذاكر أنت عصرا مر عندك لي
 فليس مثلي بناس ذلك العصر
 أيام واصلتني ودا وتكرمة
 وبالقطيعة داري ، تحضر النهار
 والآن أشرح أمرى غير معتمد
 فيه الاطالة كيما تعلم الخبر
 منذ الزمان وأشوتني حوادثه
 حتى مللت وذمت نفسي العمرا

وحللت كلّي سوى شيب تجاوزني

ولم يبيض على طول المدى الشّعرا

جنيت ذنبا وألهى خاطري وسن

عشرين حولا ، فلما ثبّه اعتذرا

فماذا صنعت بغداد بمن قصد اليها في عز رجولته ، مشوقا
راجيا متعلقا بأذيال الطموح مستتبسلا في المقاومة ، فردته — على
حبه لها — إلى عزلة صارمة ، مهيض الجناح مكسور الخاطر
ضائع الحيلة ؟

لم تفعل شيئا الا أنها ردت به الى نفسه ، ونبتت وجدائه من
« غفلة الوسن » كما قال ، وكشفت له عن عقم محاولته الهروب
من ذاته ، وتحدى محنته !

ولم تقاتل طموحه وأشلاء أمانيه ، وركب راحلته ملقيا
زمامها الى من يقوده عائدا به من حيث جاء ..

وأضى أيامه ولياليه في طريق الاياب ، يجتر ذكريات مقامه
ببغداد . ويطيل التفكير فيما هو مستقبل من عزلة وقيود ، موزع
الخواطر بين حزن على فراق « أنفس مكان لم يسعف الزمان
بقامته فيه » وشوق الى الراحة من أوهام الطموح وشطط المكابرة
وأكاذيب المنى ، ولهفة على لقاء أمه الحبيبة التي بلغه أنها مريضة
بالمعرة ..

ويرتجف قلبه بين أضلعه اشفاقا من الخبوء له في الغيب
المضر . وربما ألم به الكرى فساورته رؤى يقيسها على ما كان

من سوء بخته ، فلا يرى في الجميل منها الا أضغاث أحلام ،
أما المفزع المخيف فنذير شر واقع لا محالة :
الى الله أشكو أنتى كل ليلة

إذا نمت لم أعدم خواطر أوهام
فان كان شرا فهو لابد واقع
وان كان خيرا فهو أضغاث أحلام

حتى الرؤيا ، لم يفته تسجيلها ، ولا كنتم عنا أمرها ..
ولقد كان فيما رأى من أحلام الكرى ، أن أحد نواجذه
سقط ، وذكر أمه المريضة لكنه نحي خاطر الرهيب ، وقد
استعظم أن يكون تأويل رؤياه موت أمه ، وعد ذلك ضلالا ما بعده
من ضلال ، فأين الناجذ من الأم ، وانه لو اجد عوضا عن سن
سقطت ، أما الأم فلا عوض عنها ..
ولكن خواطره تركزت حول أمه ، وهو يقطع المرحلة الباقية
من رحلة الاياب ..

موت الأم

« يا سلوة الأحباب موعذك الحشر .. موعد والله بعيد ! » :
مضت وقد اكتملت فخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام
سألت متى اللقاء فقليل حتى
يقوم الهامدون من الرجام
فليت أذرين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمام الى الرمام
(سقط الزند)

آب الضرير الى منزله مشخنا بالجراح ، ليجد فى انتظاره طعنة
مصمية ، أعدتها له الدنيا تحية الوصول !
غال الموت أمه قبل أن يلقاها ، فرحلت عن الدار بلا وداع .
واذا لم يكن قد بقى فى كيانه موضع لسهم ، فان الطعنة
الجديدة هزت الكيان الجريح بفرط ضراوتها ، وردته أشبه بطفل
رضيع يتيم ، فقد سر وجوده ووسيلة حياته ..
وليت الصدمة مع ذلك أذهلته لينجو بالذهول من فادح ألمه
وأساءه ! لقد تلقاها بملء وعيه ، وأبى أن يتقبل فى فقيدته العزاء ،
وانطلق صوته فى اثر الراحلة :

سمعتُ نعيها صمى صمام
وان قال العواذل لا همام
وأمتنى الى الأجساد أم
يعز عليّ أن سارت أمامي
وأكبر أن يرثيها لساني
بلفظ سالك مجرى الطعام
كأن نواجذى رديت بصخر
ولم يمرر بهن سوى كلام
مضت وقد اكتهلتُ فخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركب المنون أما رسول
يبلغ روحها أرج السلام
سألت متى اللقاء ف قيل حتى
يقوم الهامدون من الرجام
ولو حادوا الفراق بعمر نسر
طفقت أعداء أعمار السمام
فليت أذين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمام الى الرمام

* * *

ولا نعلم على وجه اليقين ، ما اذا كان أبو العلاء قد زار قبر
أمه قبل أن يدخل محبسه ، أم أنه بدأ ينفذ قراره بلزوم مسكنه
من اللحظة الأولى لوصوله الى المعرة ؟ وربما استبعدنا أن يتلقى

النَّبأُ الفاجع اثر وصوله ، فلا يسعى الى قبرها محييا مودعا الى لقاء لا يدري متى يحين أوانه ، الا أن يكون امتناعه عن زيارة القبر ، تعبيرا عن يأس غليظ فادح ، وشعور بعقم المسعى الى جدث أصم ، يضم الجسد الهامد لمن كانت ملء حياته ، فصارت رمة بالية ، لا تحس طيف زائر ولا تعى صوت داع :

وقفت على أجداثهم وسألتهم
فما رجعوا قولا ، ولا سألوكا

* * *

اذا انحى ألبس أكفانه
فقد فنى اللبس واللابس
وبلى المحيا ، فلا ضاحك
اذا سرَّ دهر ولا عابس
ويحبس فى جدث ضيق
وليس بمطلقه الحابس
يجاور قوما أجادوا العظات
وما فيهم أحد نابس

* * *

وم يسمعوا قولا ، أمن صمم به
ولم يفهموا رَجْنَا كأنهم خرس
« سلم الله عليكم أهل ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح
ولا ترحل النهار . أشفاق اليكم والى من أشفاق ؟ لا الأرواح
منكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحاب ... »

« كيف أصبحتم أهل المنازل الدارسة ؟ ان ما أصابكم للخطب
الجليل .. يهتف بكم الصائح فلا يجاب » .
« ما فعل التراب بالبحث ؟ فعل بها فعل المجتث .
(الفصول والغايات)

وانكمش في منزله الذى قرر أن يكون له سجننا ما عاش ،
وبدأ فأملى الى خاله « أبى القاسم على » بحلب رسالته التى
استهلت بالتفجج واللوعة على الراحلة ، وضربت يوم الحشر
للسلو موعدا .

« كتابى أطال الله بقاء سيدى .. من معرفة النعمان ولكل نبأ
مستقر . وردتها بعد سامة ورود كعب بن مامة ، فانا الله وانا اليه
راجعون ، وله الحمد ممزوجا به الدمع ، مستكنا له من الوجد
السمع .. وصلى الله على سيدنا محمد وعترته ، صلاة يثقل بها
لسانى حزنا ، وترجح فى المحشر قدرا ووزنا . ثم أذكر قصصى
بعد ذلك :

ألا ليتنى والمرء ميت وما تغنى عن الحدثان ليت
« رحمك الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس :
فان ينقطع منك الرجاء فانه

سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر
لا آمل بعدها خيرا ، ولا أزيد فى المحن الا اىضا وسيرا :
صلى الاله عليك من مفقودة
اذ لا يلائمك المكان البلقع

أنى حلت ، وكنت جدّ فروقة
 بلدا يمر به الشجاع فينزع
 لا بارك الله في الدنيا اذا انقطعت
 أسباب دنياك عن أسباب ديانا
 يا سلوة الأيام موعذك الحشر ، موعده والله بعيد ! لا سلوة
 حتى يشوب غزى الى القرظة ، ويرجع العماذ الى الحيرة ، ويبعث
 بين من مكة ! لو لم تكن الآجال ذبرا - - - أى كتابا - - - لوجب
 أن آتت بها صبرا . على أنى والله قد أعلمتها أنى مرتحل وأن
 غزى على ذلك جاد مزعم ، فأذنت فيه . وأحسبها ظنته مدقة
 الشارب ووميض الخالب ، ولكل أجل كتاب . وحزنى لفقدها
 كسيعيم أهل الجنة كلما فقد جدد ، وشرحه املال سامع وافناء
 زمان ... » .

*

وتذكر المحزون - بعد حين - رؤيده التى سلفت ؛ وهذا
 هو تأويل الرؤيا ، فى الواقع واليقظة ، لا فى خاطرات الوهم
 وهواجس الأحلام ، وانه ليفتقد العزاء على تطاول الأيام ،
 ولا عزاء الا فيما يرجو من لحاقه بأمه ، حيث يؤنس أن يدفنه
 آله ، الى ظل قبرها :

خلو فؤادى بالموددة اخلال

وابلاء جسمى فى طلابك ابلال

ولى حاجة عند المنية : فتكها

بروحى والأهوال مذ كن أهوال

اذا مت لم أحفل ، أبالشام حفرة
 حوتنى أم ريم بريمان منهل
 على أن قلبى آئس أن يقال لى
 الى آل هذا القبر يدفنك الآل
 دعا الله أمّا ليت أنى أمامها
 دُعيت ولو أن الهواجر آصال
 مضت وكأنى مرضع ه وقد ارتقت
 بى السن حتى شكل فودى أشكال
 أرانى الكرى أنى أصبت بناجذ
 ألا ان أحلام الرقاد ضلال
 أجارحتى العظمى تشبه ساهيا
 بسن لها فى ساحة الفم أمثال
 وبين الردى والنوم قبرى ونسبة
 وشتان براء للنفوس واعلال
 اذا نمت لاقيت الأجبة بعدما
 طوتهم شهور فى التراب وأحوال

* * *

وبموت أمة ، بدأ احساسه العميق بأنه أمسى أشبه بغصن
 مجتث ملقى ه بلا جذور ولا فروع . فلقد كان من بين ما قر عليه
 عزمه وهو ينسحب الى محبسه ، ألا يتزوج ولا يلد ، كيلا يبتلى
 ولدا له بمحنة الوجود . وها قد مضى أبواه ، ولن يلبث ماء الحياة
 أن يجف فيه وينضب ، فيصير الى حذف وادغام :

فصرفنى وغيرنى زمان سيعقبنى بحذف وادغام
وسيطل هذا الخاطر يلح على وجدانه فى طور عزله ، فيتمثل
نفسه — فى اللزوميات — نبتا مر عليه يوم ليلة منفضين من
الزاد ، فاستأصله جزءاً :

كأنى نبت ، مر يوم وليلة على و كانا منفضين فجزأنى

* * *

وظل حزنه على أمه كلما نقد جدد كما قال .. وأوغل الجرح
فى أعماقه ، لتتكأه الرزايا تلم به من حين الى حين ، فيخطف الموت
أخاه الأصغر أبا الهيثم سنة ٤٠٥ هـ ، ويتتابع الراحلون من الأهل
والأحباب ، الى وادى العدم ومتاهة النسيان :

وصوت أبى العلاء فى أثرهم ، يرجع فى شجن وأسى :

« يا قلب ، لعل أسودك زنجى من ولد حام .. ألا تبتئس
لأول من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع لتقوض الأقربين ؟
يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ؟ أقمتـ وتحمل الناس وان
لحاقى بالطاعن نوشيئك . عند الله أحسب ما رزئت من أهل ولقيت
من هم كاد الغريب له يشيب ، وتعب رسخ ألمه فى الأعضاء ..

« يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القوم نحن ! لم نوفكم
الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم البارد ولبسنا ناعم اللباس ،
وأظللتنا الجدر وأفنية الدور ! لو كنا أهل حِفاظ ، عَفِنا بعدكم
النطف العذاب .. » .

(الفصول والغايات)

ويجأ في اللزوميات :

لعمري لقد وكل الظاعنون بقلبي نجما بطيء الغروب
أقول وقد طال ليلى علىّ أما لشباب الدجى من مشيب !

*

وما كان أطول ليله !

من سنته الرابعة بدأ ذلك الليل ، امتدا الى آخر العمر ..

وقد خيل اليه حيناً في ميعة الصبا وفتوة الشباب ، أنه يستطيع
أن ينسخ ذلك الليل بنهار متألق الضياء ، وأن يجعل سراه في
خضم الظلمة ، تحليقا مع النجوم في مسبح القلك ..

حتى آب من رحلته الى بغداد وقد انجابت عنه غشاوة الوهم ،
وأعوزته ما تعلل به في طريقه الى العزلة ، من الأنس بقرب أمه !
وأوحش ليله واشتدت وطأته ..

وتتابعت رسائله من عزلته ، وما أنشد من لزومياته وأملى
من فصوله وغاياته ، والغفران وملقى السبيل ، صادقة التعبير
عن ذلك الأديب الانسان الذي كشف له الغطاء عن نفسه ،
واستروح الى الافضاء بمطوى همومه ومواجهه ..

وتلاشت نعمة تعالى المسرف والتفاخر الجامح والطموح
المشتط والمكابرة العنيدة ، لنسمعه يقول في (الفصول والغايات)
وقد بدأ يملئها بعد عودته من بغداد :

« ما أضيّق علىّ دنيای ! وأنت — مولای — المفزع اذا
يطل كل احتيال » .

« ان جناحى لمهيض ! طَرتُ في الصعيد فوقعتُ غيرَ بعيد ،
والله منهض المنهاضين » .

« الله ملك الملوك » ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ،
وأن غنيها مفتقر . أعوزنى فيها مسكن آوى اليه ، وتبوات
الناسجة — أى العنكبوت — بين المثاب » .
« أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان
ويكون » .

« أرتفع والقدر يكبنى ، يألبنى دائما ويلبنى ، كم أستنسر
وأنا من البغاث ! » .
وينشد فى اللزوميات :

ربّ متى أرحل عن هذه الدن
سـيا فانى قد أطلت المقام
لم أدر ما نجمى ولكنّه
فى النحس مذ كان ، جرى واستقام
فلا صديقى يترجى يلى
ولا عدوى يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب
والموت يأتى بشفاء السقام

* * *

رمانى من له وترى وقوسى
وكفى ، والسهم ، فكيف أرمى

* * *

إذا طفت في الثرى أعين
فقد أمنت من عمى أو رمد

* * *

فيا دار الخسار ألى خلاص
فأذهب في الجنوب أو الشمال
وظلم أن أحاول فيك رجاء
ولم أخرج اليك برأس مال

* * *

ملام لنفسى حق عندى لمثلها
وكنت حقيقا عندها بسلام
واظلام عين بعده ظلمة الثرى
فقل في ظلام زيد فوق ظلام

* * *

ان يرحل الناس ولم أرتحل
فعن قضاء لم يفوض الى
خلقت من بعد رجال مضوا
وذاك شر لى وشر على
لشد ما تغير ذلك الشاب الذى عرفناه فى الطور الأول من
حياته قبل أن يرحل الى بغداد !!

الفصل الرابع

المرحلة الثانية معركة المجاهدة

رهين المحبسين
صائم الدهر
السيرة المذاع
الأديب الحكمة
خصومة واتهام

رهين المحبسين

هذا زمان ليس في أهله الا لأن تهجره أهل:
حان رحيل النفس عن عالم ما هو الا الغدر والجهل
(اللزومات)

بدأ من اللحظة الأولى ينفذ ما فرضه على نفسه من قرار
بالعزلة عن الناس والاتقطاع عن الدنيا والحرمان من متعها ولذاتها،
فيلزم بيته لا يرحه ، ويمتنع عن الزواج ، ولا يأكل اللحوم
والبيض والألبان ، بل يقنع من الطعام بما يمسك ريقه مما تنبت
الأرض ، ومن اللباس بما يستره من خشن الثياب ، ومن الفراش
بحصير من بردى أو لباد ، وأن يروض نفسه على الزهد في الدنيا
والسلو عنها ، كيما يهون عليه احتمال محنة الوجود ووطأة
الحرمان .

ذلك ما استقر عليه عزمه وأجمع عليه أمره ، منذ انسحب
نفسيا ثم جسيما من بغداد ، فكيف كان مسلكه ، وماذا أطلق
من ذلك كله ، وماذا أعياه أن يطيق ؟

* * *

أما العزلة ، فالتزم بها من جانبه الى أقصى المدى : لبث تسعا
وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره الا مرة واحدة

م تتكرر ، حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى « أسد
 الدولة صالح بن مرداس : صاحب حلب » وكان قد خرج الى
 المعرة ليخمد حركة عصيان من أهلها ، سببها — فيما نقل ابن
 العديم والقفطى والذهبي والصفدى — « أن امرأة دخلت جامع
 المعرة صارخة ، تستعدى المصلين على صاحب الماخور الذى أراد
 اغتصابها . فنفر كل من فى الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوا
 ما فيه . وكان أسد الدولة فى نواحي صيدا فأسرع الى هناك ،
 وعسكر بظاهر المعرة وشرع فى قتالها ورمها بالمنجنيق ، واعتقل
 من أعيانها سبعين رجلا ، اقامة لهيبة السلطان . فلما رأى أهل
 المعرة ألا قبل لهم بذلك ، سعوا الى أبى العلاء يسألونه الخروج
 الى أسد الدولة فى معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعة لهم عنده .
 وما زالوا به حتى خرج متوكلنا على يد قائد له ، وقيل لصالح :
 ان باب البلدة قد فتح وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى . فقال :
 هو أبو العلاء ، أوقفوا القتال . وأذن له وأكرمه وعرفه شوقه الى
 لقائه ، ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له أنه جاء شفيعا لقومه ،
 أجاب صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء — يعنى المعرة . ثم
 استنشدته فأنشد ارتجالا :

تغيبت في منزلى برهة	ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل	وحم لروحي فراق الجسد
بثعت شفيعا الى صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمام	وأسمع منه زئير الأسد

قال صالح : بل نحن الذين نسمع منا سجع الحمام ، وأنت
الذى نسمع منه زئير الأسد . ثم أمر بخيامه فوضعت ، ورحل
عن المعرة » .

وعاد أبو العلاء الى محبسه وهو ينشد ردا على اعتراف
القوم بفضله :

نجى المعرة من برائن صالح

رب يداوى كل داء معضل
ما كان لى فيها جناح بعوضة

الله ألحقهم جناح تفضّل
والشعر من اللزوميات . وفى الديوان كذلك قصيدة أخرى،
فى هذه الحادثة ، منها :

أتت جامع" يوم العروبة جامعا

تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها

لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدّوا بناء كان يأوى فناءه

فواجر" ألقت للفواش خمرها
ألّفنا بلاد الشام الف ولادة

نلاقى بها سود الخطوب وجرها

.

فانى أرى الآفاق دانت لظالم

يغر بغاياها ويشرب خمرها

ولو كانت الدنيا من الانس لم تكن

سوى مومس أفنت بما ساء عمرها

أما زمن الحادثة ، فبين عامي ٤١٧ ، ٤١٨ هـ . أى بعد نحو ثمانى عشرة سنة أمضاها فى محبسه لم يبرحه ، ولن يبرحه منذ عاد من شفاعته لدى صالح ، الى أن خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباء الى قبره .

ولكن الذى لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزلته ، ولقائهم اياه فى محبسه .

وقد حاول مخلصا ، أن يصرفهم عنه بكل ما أطاق من جهد ، وأفلح فى ذلك الى حين ، فما سمح لأحد بالدخول اليه ، الا لخاصة أهله الأدينين . ويقول ابن العديم :

« أقام مدة طويلة فى منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم ان الناس تسببوا اليه — يعنى التمسوا الأسباب — وألحوا فى طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأدينين » ثم نقل قصيدة لأبى صالح محمد بن المذهب ، كتبها الى أبى الهيثم ، متوسلا به الى أخيه أبى العلاء ، ومنها :

أراها أبت الا النوى بى مغرما

ولو رضيت هجرانها لكفانى

تضن باهداء السلام تجاهلا

ولو علمت أن الرقاد جفانى

هبى هجمة كيما أرى الطيف مرة

بها تحت أرواق الدجى ويرانى

لعلى أشفى علتى بلقاءه
 فكم من خليل زارنى فشفانى
 وود كريم لو ينال خلائقا
 هى النجم زادته علوً مكان
 تخير قلبى والحشا ، ثم أنه
 ثوى بمحل عن سواه مصان
 أبا الهيثم اسمع ما أقول فانما
 تعين على ما رمت خير معان
 قريضى هجاء ان حرمت مديحه
 لأروع وضاح الجبين هجان
 أطل على بغداد كالغيث جاءها
 به سعد نجم فى أجل أوان
 فضاها ثياب المجد وهى لباسها
 وبدلها من شدة بليان
 فياطيب بغداد وقد أرجت به
 على بعدها الأطراف من أرجان
 غدا بكم المجد المضى وانه
 ليغمر من أضوائه العمران
 نأى ما نأى والموت دون فراقه
 فما عذره فى النأى اذ هو دان
 فكن حاملا منى اليه رسالة
 تبين اليه فى هضاب أبان

فان قال أخشى من فلان تشبها
 فقل ما فلان عندنا كفلان
 هو الخيل ما فيه اختلال مودة
 فلا تخش منه زلة بضمان
 فان خنت عهدا أو أسأت خليفة
 ولم يك شأنى فى المودة شأنى
 فلا أحسنت فى الحرب امسك مقبضى
 يمينى ، ولا يسراى حفظ عنانى
 لعل حياتى أن تعود نضيرة
 لديه كما كانت ، وطيب زمانى
 والقصيدة لا تعيننا الا من حيث دلالتها على ما كان يعنيه
 أبو العلاء بقوله عند منصرفه من بغداد : « وأجمعت أمرى على
 عزلة وانفراد » ومبلغ صدقه فيما اعتزم ، فأبو صالح محمد بن
 المهذب ، من أعيان العصر فضلا وعلمًا وتقى ، وهو ابن عمّة
 أبى العلاء ، ورفيق صباه وزميله فى الدرس ، فالقصيدة تقدم لنا
 شاهدا على أن باب أبى العلاء فى عزلته ، كان موصدا حتى على
 ذوى الرحم والقربى ، من أمثال أبى صالح الذى يمت الى
 الضرير المعتزل بأقرب الأسباب .

* * *

ورق قلب أبى العلاء لمثل ذلك التوسل الملح ، وكرهت له
 مروءته ألا يستجيب لدعاء من وقفوا ببابه ضارعين . وفتح الباب ،
 لا ليخرج منه أبو العلاء الى الناس ، ولكن ليدخل عليه الزائرون

من شتى أنحاء العالم الاسلامى ، فصار منزله الذى أراده سجنا له ، دارا للعلم يحج إليها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه ويتعلمون منه ويأخذون عنه .

وفرغ للتدريس والاملاء ، فاذا خلا بنفسه فى غير أوقات الدرس ، فللعباداة والتأمل .

قال القفطى وابن خلكان :

« وأخذ عنه الناس ، وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال ابن فضل الله العمرى :

« وأخذ عنه خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر . واستفادوا منه ، ولم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه الى ضعف أو وهن » .

وفى هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج الى عدد من الكتبة الحذاق الأمناء ، يفرغون لكتابة ما يمليه ، واختص به نفر من الكتاب المجودين ، يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه ما يمليه من الاجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه . وفى كتاب (الانصاف والتحرى) لابن العديم ، فصل فى ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبى الغلاء ، منهم :

ولدا أخيه أبى المجد محمد : أبو محمد عبد الله بن محمد ، وكان برا بعمه ملازما لخدمته والكتابة له ، ويقع بخطه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد ولى قضاء المعرة على كره من عمه ، وكان مولده بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ . ووفاته سنة ٤٦٥ . وأبو الحسن

على بن محمد ، تولى قضاء المعرة وقضاء حماة سنة ٤٥١ هـ . بعد
اعتزال أخيه القاضي أبى محمد عبد الله ، وقد نسخ بخطه جميع
أمالى عمه .

وابن أخيه أبى الهيثم : الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد
المتوفى سنة ٤٤٢ هـ . وكذلك ولده منافر بن زيد ، وقف بخطه
كتباً من تصانيف أبى العلاء عم أبيه . تدل على فضلة وحسن
تقله .

وجعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داود بن المطهر
التنوخى ، وكان من أعيان كتاب أبى العلاء ، وقرأ عليه كثيراً
من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خطه على غاية من الصحة
والضبط » .

وابراهيم بن على بن الخطيب ، الذى اشتهر بالضبط والاتقان
واجادة الخط . كتب معظم كتبه وتصانيفه ، كما كتب عنه فى
السماع عليه والاجازة عنه .

وأبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم المعرى ، وكان
من العدول الأمناء الفضلاء ، تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان ،
« ولزم أبا العلاء وكتب مصنفاته بأسرها ، وربما كتب من
المصنف الواحد عدة نسخ ، غاية فى الضبط » ..

وولده أبو الفتح محمد بن على ، وكان كوالده ملازماً لخدمة
أبى العلاء والكتابة له .

وقد اعترف أبو العلاء بجميل كتابه ، فذكر فى بعض شعره

ابن أخيه أبا محمد القاضي ، شاكرا له صادق بره وكریم فضله ،
واياه عنى بقوله :

وقاض لا ينام الليل عنى وطول نهاره بين الخصوم
وقوله :

أعبد الله ما أسدى جميلا نظير جميل فعلك غير أمى
سقتنى درها ، ودعت ، وبات تعوذنى ، وتقرأ أو تسمى
همت بأن تجنبنى الرزايا فرمت وقايتى من كل همى
كان الله يلهمك اختيارى فتفعله ولم يخطر بوهمى
حمدتك فى الحياة أتم حمد وأيامى ذمت أتم ذم
أجدك ما تركت وأنت قاض تعهد مقعد أعمى أصم
كما ذكر بالحمد والثناء ، كاتبه أبا الحسن على بن عبد الله
فقال :

« لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على
تسبيح الله وتمجيده الا أن أضطر الى غير ذلك . فأملت أشياء
وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ،
أحسن الله معوته ، فالزمنى بذلك حقوقا جمة وأيادى بيضا ،
لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له
الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

أما ولده أبو الفتح بن على ، فقد صنف أبو العلاء كتابا
باسمه عنوانه (المختصر الفتحي) كما اختصه بكتابه (عون
الجمال) — آخر كتاب أملاه — وفيه شرح لبعض ما فى (كتاب
الجمال) لأبى اسحق الزجاجى ..

وسجل شهادته لبنى أبى هاشم بالأمانة والورع والثقة والضبط « فى (رسالة الضبعين) التى كتبها الى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو اليه فيها تحريف رجلين لبیت من شعره فى (لزوم ما لا يلزم) لیتهماه بالالحاد . قال :

« وفى حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب — يعنى الزوم — بخطوط قوم ثقات يعرفون ببني أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أحضرت — النسخ — ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

* * *

واشتهر من تلاميذه :

على بن المحسن بن على التنوخى القاضى ، وهو من أقرانه ، وقد لقيه ببغداد ، وكان له صاحباً وصديقاً طول مقامه بها . وفيه يقول أبو العلاء القصيدة التائية التى نقلنا بعض أبيات منها ، فى حديث الرحلة الى بغداد .

وأبو زكريا الخطيب التبريزى ، من أعيان القرن الخامس .
والامام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهر .
والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأنصارى الأندلسى .

والخليل عبد الجبار القزوينى ، وأبو طاهر محمد بن أحمد الأنبارى ، وأبو الحسن على بن همام ، ونصر بن صدقة القابسى النحوى ، الذى رحل الى المعرة فلازم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه .

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الاصبهاني « وكان من فضلاء العصر ، قصد الى معرفة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه الى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتابه « ضوء السقط » شرحا لسقط الزند .

ولم يقبل قط أن يأخذ على العلم أجرا ، بل انه كان يود لو أن موارده المالية المحدودة ، احتملت عبء ضيافة تلاميذه . وما سَمِعَ — في المرحلة الثانية من عمره — يشكو من ضيق ذات يده ، الا لقصوره عن أداء حق الضيافة « فكان — فيما نقل القفطي والذهبي : « يتأوه من ذلك ويعتذر الى قاصديه » .

وحاول مع ذلك « أن يقتصر على نفسه في القليل من رزقه ، ليوفر من دخله المحدود ما كان يعده زكاة مروءته ، ذكر ابن العديم في (الانصاف) أن أبا العلاء « كان لا يقنع بالدفع الى من يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من ايراده الضئيل شيئا لأولى الحاجة ممن يتردد اليه » . ثم نقل باسناد عن الخطيب التبريزي أنه قال :

« كان المعري يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويتردد لأجل الأدب اليه » .

كما نقل مما قرأه بخط أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن « الكاتب الوزير ، في وصف رحلته الى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبي العلاء :

« وله معاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له ، وورّاق برسمه مستأجر ؛

ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على اللاتذنين به وفقراء القاصدين له من الغرباء » .
وقد أبت عليه مروءته ، أن يقبل من تلميذه الخطيب التبريزي — وكان فقيرا — نفقة اقامته التي طالت عنده . وفي الخبر أن الخطيب « كان قد أعطاه صرة فيها ذهب ليدفعها الى من يختار » كي ينفق منها على ما يحتاج اليه من طعام ، ويتوفر هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهياً لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذهبه الذي دفعه الى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه « دفع اليه صرته بعينها لم تمس » ..



واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب « عدد من أعلام العصر . اما بالرحلة اليه ، واما بمراسلته . واشتهرت رسائله الى بعضهم ، مثل (رسالة الغفران) التي أملاها ردا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبي ، على بن منصور المعروف بابن القارح . ورسائله الى داعي الدعاة أبي نصر هبة الله بن موسى ابن أبي عمران ، ردا على رسائل تلقاها منه ، يجادله فيها عن امتناعه عن أكل اللحوم وايداء الحيوان .

واتصل به كذلك « عدد من الأمراء ، يسألونه تشریفهم بتصنيف كتب برسمهم . وأجاب دون أن يأخذ على شيء منها أجرا : صنف كتاب « تضمين الآي » لأحدهم ، وهو يتضمن العظات والحث على تقوى الله تعالى ، مع الاتيان بآية من القرآن

الكريم في ختام كل فصل من الكتاب . وصنف كتاب « تاج
الحرّة » في عظات النساء بخاصة ، لاحدى الجليلات من النساء ،
ويقول ابن العديم : « ويغلب على ظنى أنها طرود » زوج
ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسه .

وألف كتاب « سجع الحمام » لبعض الرؤساء اجابة لطلبه ،
وهو على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . ومقداره
ثلاثون كراسه .

وكتاب « الجلىّ والجلىّ » سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين
وأعيانهم . مقداره عشرون كراسه .

وللأمير عزيز الدولة شجاع بن فاتك — والى حلب من قبل
المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر — ألف ثلاثة كتب :
الصاهل والشاحج . ولسان الصاهل والشاحج ، على لسان
فرس وبغل . والقائف ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

وألف لسند الدولة الكتامى ، والى حلب من قبل المصريين ؛
(الرسالة السندية) و (رسالة العرض) .

و (رسالة الاغريض) كتبها الى أبى القاسم الحسين بن على
المغربى ، وكان قد سير اليه كتابه الذى اختصر فيه (اصلاح
المنطق) لابن السكيت .

وعمل للأمير عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح ، كتاب
(اللامع العزيزى) فى تفسير شعر المتنبى .

وبعث اليه أبو اليمن المسلم بن الحسن ه صاحب الديوان بحلب ، نسخة من شعر أبي عبادة الوليد البحتري ، فأعاده اليه بعد أن راجعه وتقده ، ودون ما فيه من غلط ، في كتاب سماه (عبث الوليد) .

وكتاب (شرف السيف) عمله لأمير الجيوش أنوشتكين والى دمشق وحلب .

وأنفذ اليه « مصطنع الدولة ؛ أبو غالب كليب بن علي » ديوان الحماسة مع شرح أبي رياش لها ؛ وسأله أن يخرج في حواشيها ما لم يفسره أبو رياش ه فأجابه أبو العلاء ، بكتاب مفرد سماه (الرياشي المصطنعي) .

هذا الى جانب ما ألفه للأصدقاء ، وذوى الحاجة ه ممن سألوه أن يزودهم ببعض مؤلفات في موضوعات يحتاجون اليها ، ومن ذلك :

(سيف الخطبة) وفيه نماذج لخطب الجمع والعيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وعقد النكاح ، على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .

و (ضوء السقط) وهو شرح لديوانه سقط الزند ، وضعه لتلميذه أبي عبد الله محمد الأصبهاني .

(والظل الطاهري) في النحو ، عمله لأبي طاهر المسلم ابن علي ه من أفاضل الحلبيين .

و (المختصر الفتحي) و (عون الجمل) عملهما لولد كاتبه ، أبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن علي .

و (شرح خطبة أدب الكاتب) عمله لأبى الرضى سالم
ابن الحسن الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء .
ولم تذكر الحشد الكاثر من الزائرين ، ومن الأصدقاء الذين
تبدلت بينهم وبينه الرسائل الاخوانية أو اللغوية والأدبية .

* * *

لكنه مع كل هذا الاتصال بالناس ، لزم مسكنه لم يرحه
الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ ، وقد حاول الحاكم بأمر الله الفاطمي
أن يحمله الى القاهرة ، مع من جلب اليها من علماء العصر ؛
لما بلغه من واسع علمه . وفي خبر نقله السيوطي في (بغية
الوعاة) أن نصر بن صدقة القابسي النحوي توجه الى المعرة فلازم
أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة .
فلما عاد الى مصر قدمه الى « الحاكم » فأعجبه نظمه وقرر أن
يستدعيه من المعرة .

وذكر ابن العديم في (الانصاف) أن « الحاكم » أمر وزيره
« على بن جعفر بن فلاح » أن يكتب الى عزيز الدولة أبى شجاع
فاتك . « والى حلب وأعمالها ، بحمل هذا العالم الى مصر لينبئ له
بها دار علم يكون متقدما فيها ، على أن يسمح له بخراج معرة
النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير نهض
من فورهِ وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ عليه
الكتاب ، فاستمعه ريثما أمله الى الوزير الفلاحى رسالة
مطولة — تجدها في مجموع رسائله — يستغفیه بها من كل
ما عرض ، وينفى ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره

عن عدم اجابة الطلب على ما به من شوق الى الحضرة ، ومجالسة
من في دار العلم بمصر من السادات الكبراء . وننقل هنا من رسالته :
« .. ما اعتزلت حتى جددت وهزلت ، فوجدتني لا أصلح
لجد ولا هزل ، فعندها رضيت بالأزل .

« ما حمامة ذات طوق يضرب بها المثل في الشوق ، كانت في
وكر مصون بين الشجر والعصون ، تألف من أبناء جنسها ريذا
فيتراسلان تغريدا ، مسكنها نعمان الأراك ، تأمن به غوائل
الأشرار ، وتمر في بكرتها بالبيت الحرام لا تفرق لمكان صائد
ولا رام ، فغرها القدر اذ لم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض
المحرمة فأصبحت وهي جدّ مغرمة ، صاها وليد في الحل ،
ما حفظ لها من الدّ ، فأودعها سجنًا للطير ومنعها من كل مير ..
بأشوق الى المعيشة النضرة منى الى تلك الحضرة . ولكن صنع
الزمان ما هو صانع ، واعترض دون الخير مانع .. المورد نير
أزرق ، ولكن المدنف بالشراب يشرق :
لما رأى لبّد النور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل
انهض لبّ ، هيهات ! صدك الأبد .

« وان العامة عهدتني في صدر العمر أستصحب شيئًا من
أساطير الأولين فقالت : عالم ، والناطق بذلك هو الظالم ، ورأيتني
مضطرا الى القناعة فقالت : زاهد ، وأنا في طلب الدنيا جاهد .
وزاد تقول القوم علىّ حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين
ورد فيهم الحديث المأثور : « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه
من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى اذا

لم يبق عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

« .. وكيف يتأدى العلم الى وأنا رجل ضير ، وكفى من شر سماعه ، ونشأت في بلد لا عالم فيه .. ولم أكن صاحب ثروة ، فكيف الحذاء بغير بعير ، والانباض مع فقد التوتير ؛ فان بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبت وشيا وحريرا ، والسحاب أمطر مدا ما وعيرا ، فهو أعلم برده على المبطلين

« لهفى على فوات هذه المنزلة ! .. من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء !
لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى
« هل آمل من الله ثوبا ، وانما أنا كقتلى بدر أسمع ولا أملك جوابا . ولمثل هذه الرتبة سهر من أهل العلم الساهرون ..
« يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .
« وعزيز الدولة يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر باخراج ميت من قبر ! .. » .

لنا أن نقول اذن : ان عزلة أبى العلاء وان لم تسلم له على النحو الذى أراد ، الا أنه التزم بها من ناحيته ، فلم يبرح منزله حتى مات ، وكان الناس هم الذين اقتحموا عليه هذه العزلة ؛ فشغلوه وشغلوا به ..
على كره منه ..

وكان أحيانا يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأرب
لقاصد ، أو منتجع لرائد :

يزورنى القوم ، هذا أرضه يمن
من البلاد وهذا داره الطبس
قالوا سمعنا حديثا عنك قلت لهم
لا يبعد الله الا معشرا تيسوا
يبنون منى مبنى لست أحسنه

فان صدقت عرتهم أوجه عبس
ماذا تريدون ؟ لا مال " تيسر لى
فيستماح ولا علم فيقتبس
أنا الشقى بأنى لا أطيق لكم

معونة وصروف الدهر تحتبس
وطالما انتهى الوحدة التامة ، ورأى فيها الراحة العظمى
المتاحة لمثله فى الدنيا ، والظهارة من دنس العصر ولؤم أهله :
هذا زمان ليس فى أهله الا لأن تهجره أهله
حان رحيل النفس عن عالم ما هو الا الغدر والجهل

*
فى الوحدة الراحة العظمى فأحنى بها
قلبا ، وفى الكون بين الناس اثقال

*
طهارة نفسى فى التباعد عنكم
وقربكم يجنى همومى وادناسى

*

من لى بآنى وحيد لا يصاحبنى
حى سوى الله ، لا جن ولا انس
سلكت طرق المعالى ثم قلت لهم
سيروا ورائى ، فلما شارفوا خنسوا

*

بنو الوقت ان غرّوك منهم بحكمة
فما خلفها الا غرائز جهال
لذاك سجنّت النفس حتى أرحتها
من الانس ما أخلاه ربع باخلال
اذا ما حلت الجذب فردا بلا آذى
فسقيا له من روضة غير محلال

*

وما فى الأرض من شرب كريم
يسر بورده الصادى العيوف
وما باختياره كان يلقى زوّاره ..

ولا باختياره كذلك كانت عزلته عن الناس ، وانما حمله
عليها عجزه عن احتمال نكر العصر وفساد المجتمع ، وانه ليقول
مع ذلك ، فى اجتماعية الانسان كلمات جرت مجرى الأمثال :
الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض ، وان لم يشعروا خدم

* * *

ولو أنى حبّيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

صائم الدهر

ووجدت نفس الحر تجعل كفته صفرا ، وتلزمه بما لا يلزم
(اللزوميات)

فماذا عن قراره الخاص بالتزهد والحرمان من كل متع الدنيا
ولذاتها ؟

كان أمرها فيما يبدو هينا عليه ، حيث استطاع أن يبقى على
الحرمان ما عاش ، فبقى الى آخر عمره لم يتزوج ، وأمضى نحو
نصف قرن من الزمان « طعامه البقل » ولباسه خشن القطن ؛
وفراشه سجادته : من لباد في الشتاء ، وحصير البردى في
الصيف » .

أجمع على ذلك مؤرخوه بلا استثناء ، وشهدت به آثاره التي
أملأها بعد عزلته .

وكان له ايراد يسير يأتيه من وقف له مقداره بضعة وعشرون
دينارا في السنة ، يدفعه نصفه أجرا للخادم ووراقه ، ويقيم أوده
بالتنصف الباقي . فاذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء
بضرورات العيش ، تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن
يلتمس زيادة في رزقه من أى سبيل .. أو كما قال في إحدى
رسائله الى داعي الدعاة :

« ولست أريد في رزقي زيادة ، ولا أؤثر لسقمي عيادة » .
وكما رفض وهو ببغداد ، قبول ما عرضه عليه البغداديون من
أموالهم عرض الجد ، أبى بعد عزله أن يقبل عطاء من أى مخلوق .
وقد مرّ بك في حديث عزله ، ما ذكره مؤرخوه من أن
الحاكم العلوى بمصر ، أراد أن يحمله إليها لما سمع من علمه ،
على أن يسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته ، فأبى واعتذر .
ويذكرون أيضا في تاريخه ، أن المستنصر بالله الفاطمى صاحب
مصر — ٤٢٧ هـ — « بذل له ما يبيت المال في معرة النعمان
فلم يقبل منه شيئا » .

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من الامتناع عن أكل اللحم
واللبن والبيض وايداء الحيوان ، وأصر على الاكتفاء بما تنبت
الأرض من بقل وفاكهة ، بالرغم من انكار مجتمع عصره لهذا
المسلك ، واتخاذهم مطعنا لتجريحه واتهامه .

وتشهد الرسائل التى تبودلت بينه وبين « داعى الدعاة :
أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران العلوى » على ما أجهد
أبا العلاء من عنف الخصومة على موقفه ، وعنت المجادلة فيه ؛
وعلى ما تكلف من مشقة وعناء لكى يبرر مسلكه .

وكان أبو العلاء قد قال قصيدته اللزومية :

غدوت مريض العقل والدين فالتقى

لتسمع أنباء الأمور الصالح

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما

ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير وهى غوافل
 بما وضعت ، فالظلم شر القبائح
 ودع ضرب النحل الذى بكرت له
 كواسب من أزهار نبت فوائج
 فما أحرزته كى يكون لغيرها
 ولا جمعته للندى والمنائح
 مسحت يدي من كل هذا فليتني
 أبتهت لشأني قبل شيب المسائح
 فكتب اليه داعي الدعاة ، أنه ذلك المريض ، وقد جاء يلتمس
 لديه البرء والشفاء .

وكان أول سؤاله : عن العلة فى تحريمه على نفسه أكل اللحم
 واللبن ، سؤال من يعرف « أن القوة الانسانية مستولية على
 الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق .
 فهى مسخرة له على أنواع من التسخير ولولا ذلك لكان موضوع
 الحيوان باطلا . فتجافى الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما
 هو موضوع له مخلوق لأجله ، ابطال لتكوين الخلقة . ثم
 امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين :
 اما أنه تأخذه رافة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغى أن
 يكون أراف بها من خالقها . فاذا ادعى أن تحليلها وتحريمها انما
 كان من بعض البشر ، يعنى به أصحاب الشرائع ، وأن الله لم يبح
 اراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله ؛ وقوع
 المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله سبحانه

على صيغة لا تصلح الا لتنش اللحوم وفسخها وتمزيق
الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة ،
كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم ، وكان من أحل
لهم ذلك محققا . والثاني : أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجا
عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه الذي
أوجده ! » .

هكذا خرجت القضية من زهد زاهد ، وتأملات شاعر ، الى
مجادلة في نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق !
وأجاب أبو العلاء :

« .. وقد علم الله أن سمعى ثقيل وبصرى عن الابصار ثقيل .
قضى علىّ وأنا ابن أربع لا أفرق بين البازل والرّبع . ثم توالى
محنى فأشبهه شخصى العود المنحنى .. وأما ما ذكره السيد الرئيس
الأجل ، المؤيد فى الدين ، فالعبد الضعيف العاجز يذكر له مما عاناه
طرفا ، فأقول : ان الله جلت عظمتة حكم علىّ بالأزهاد ، فطفقت
من العدم فى جهاد . وأما قول العبد الضعيف العاجز :

* غدوت مريض العقل والدين فالقنى *

فانما خاطب به من هو فى غمرة الجهل ، لا من هو للرياسة
علم وأصل . وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم ..
ولم يزل من ينسب الى الدين يرغب فى هجران اللحوم لأنها
لم يوصل اليها الا بايلام الحيوان .. وقد تردد فى كلام العرب
ما يلحق الوحشية من الوجد ، والناقة اذا فقدت الفصيل ، فقال
قائلهم :

فما وجدت كوجدى أم سقب أضلّته فرجعت الحنينا «
وعرض لاختلاف العلماء فى الشر والخير « وهذه عقدة
قد اجتهد المتكلمون فى حلها فأعوزهم « . ثم قال :

« فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ
ثلاثين عاما ، سأل ربه انعاما . ورزقه صوم الدهر فلم يفطر فى
السنة ولا الشهر الا العيدين . وصبر على توالى الجديدين .
وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية ..

« ومما حثنى على ترك أكل الحيوان « أن الذى لى فى السنة
نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمى بعض ما يجب بقى لى
ما لا يعجب ، فاقترضت على فول وبلسن « وما لا يعذب على
الألسن .. ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا لسقمتى عيادة «
والسلام « .

وطالت بينهما المجادلة ، وأراد داعى الدعاة أن يبطل حجته
فكتب اليه :

« وقد كاتبت مولائى تاج الأمراء — يعنى ثمال بن صالح —
أن يتقدم بازالة العلة فيما هو بلغه مثله من ألد الطعام « ومراعاته
به على الادرار والدوام ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى
فى أمر معيشتة على أحسن ما يكون من الصورة « .

ورد أبو العلاء :

« .. وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق على .. فالعبد
الضعيف العاجز ما له رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركها

صار له عادة وطبعا ، وانه ما أكل شيئا من حيوان ، خمسا وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى في ثرى رmse »

وقد كان أبو العلاء ، حين أجهّد بهذه الخصومة ، شيخا في نحو الخامسة والثمانين من عمره !

ولم يقبل الداعي اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح في مجادلته ، وقد حاول أبو العلاء ، أن يرد القضية الى وضعها البسيط ، من حيث هي مبالغة في الزهد والتعفف ، محتجا بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والأئمة من الصالحين ، من القناعة بالقليل ، وإيثار أهل الحاجة بما يفضل منهم :

« وقد عدل سيدنا الرئيس الى الايماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم . ولو أخذ بهذا المذهب ، لوجب على الانسان ألا يصلي صلاة الا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أداه الى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولوجب أن الذي له مال كثير ، اذا أخرج عن الذهب ربع العشر ، لا يحسن أن يزيد على ذلك : وقد حثّ الناس على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف » .

واذا كان الداعي قد أفلح بتمارضه في جرّ أبي العلاء الى المناظرة ، وضيق عليه الخناق بجذله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع طبيبه بالرجوع عن رأيه ومسلكه ، بل أصر عليه ما عاش ، وأعلن

عن هذا الاصرار بقوله في رسالته الرابعة الى ابن أبى عمران « انه » قد رضى أن يلقى الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فان وصل الى هذه الرتبة فقد سعد .
أجل ...

يلقى الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل الناس فيه من شر واثم وظلم وبغى ، وما اقترفوا من كبائر وفواحش ، وان أصناف الحيوان — فيما قال : « لأولى بالرأفة ، وهى لم تشرب من الاثم بذنوب ، ولم تجن ما يكتب من الذنوب » .

* * *

ولقد جادله آخرون فى هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأسا من اقناعهم ، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره .

وفى الخبر أنه مرض فجاءوه بطبيب وصف له لحم فرّوج غداء . وأتوه به فلمسه وقال :
« استضعفوك فوصفوك . هلاّ وصفوا شبل الأسد ! » .
وأبى أن يذوقه ..

أنا صائم طول الحياة وانما
فطرى الحمام ، ويومذاك أعيده

الستر المذاع

وقال الفارسون : حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسـنه
ورمضت صعاب آمالي فكانت
خيولا في مراتعها شمسـنه
ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خيـارها غنى خنـسـنه
(اللزوميات)

لمدى يقرب من نصف قرن ، أخذ أبو العلاء نفسه بأقصى
ضروب الزهد ، وراضها على احتمال ما فرض عليها من حرمان
صارم . فهل كان ذلك عليه هينا ؟
كلا ! بل انه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف
والقسوة ، والذي لا ريب فيه عندنا أنه بذل في هذه المعركة
ما يجاوز طاقة البشر ، لكنه ظل ، الى آخر العمر ، عاجزا عن أن
يقهر في نفسه حب الدنيا ، أو يرتاح بالسـلو عنها !
وقد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن
الرجل انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطنها بقدميه
بعد أن انصرفت نفسه عنها .

ولسنا بحيث ننكر أن أبا العلاء لم يكف عن ذم الدنيا
ولعنتها ، ولكنه كذلك لم يكف عن الشكوى مما رسخ في نفسه
من حبها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ،
وحاجاته الغريزية المقهورة !

وهو حين انسحب منها اثر عودته من بغداد ، لم يكن ينبغي
أكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عزّت عليه راحة الأمل
فيها !

ولم يطأها بقدميه كما زعموا .

وانما اتجهت محاولته الى قهر ما في فطرته من شغف بالدنيا ،
بهذه الرياضة القاسية الصارمة .

ولسنا نقول في هذا برأى لنا ، وانما الكلمة فيه لأبى العلاء ،
وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثاره
في الشطر الثاني من حياته ، وظل يقولها الى أن استراح بالموت
من عذاب المكابدة .

وهنا نطيل الوقوف ، لنصغى اليه وحده . لعل صوته ينفذ
الى أعماق وجداننا فينسخ بصدقه ما رسخ في هذه الأعماق من
أقاويل عنه ، ويهدينا الى عالمه النفسى ، حيث نراه على حقيقته ،
مجردا من الظلال التى مسخته !

ولنبداً بالفصول والغايات ، التى بدأ يملئها اثر انسحابه
من بغداد الى محبسه بالمعرة ، وفيها جوار من حرقة الظمأ ، ولهفة
على راحة اليأس :

« انما أنا رجل بثلى بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو

ظمآن أبدا ! ان ورد غروفا — البئر يغرف مأوها فى يسر —
وجده مضفوقا ، وان صادف نزوعا ؛ أعوزته الآلة والمعين .. » .
« أيتها الدنيا البالية ؛ ما أحسن ما حلتك الحالية ! والنفس
عنك غير سالية .. » .

« بى طب — داء — فأين أستطب ، وأنا تحت حب الدنيا
محب — رازح — أثقلنى فأنا مكب » .

« زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت
لها وشنفت . ولو أنصفت لعُفْتُ ما أستوبله — أجده ويلا —
فما ثقت » .

« رضيت بالحضض على مضض .. » .
« لا أكتمك — مولاى — ما أنت به عليم ، ان أسفى على
الدنيا طويل .. »

« أحب الدنيا كأنها تجبنى ، والغريزة عن الرشد تذبنى .. » .
« أحب الدنيا وآلتها ليست فى ! وقد يئست من بلوغها
والياس مريح ، فالام التشوف والضلال ؟ » .
وقال فى اللزوميات :

وصدقت هذا العيش فى حبى له
واغترنى بخداعه وكذابه
عذب يعذبنى البقاء وللردى
يوم يخلص من فنون عذابه

✱

نحن البرية أمسى كلنا دفنا
بحب دنياه حبا فوق ما يجب

*

وكلكم يبدى لدنياه بغضة
على أنه يخفى بها كمد الصب

*

لو أن عشقك للدنيا له شبح
أبديته ، لمأت السهل والجبال

*

شقيننا بدنيانا على طول ودها
فدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تبدين الزهد فيها فكلنا
شاهد بأن القلب يضر عشقها

*

أيها الدنيا لحاك الله من ربسة دل
ما تسلى خلدي عنك وان ظن التسلى

*

أشربت حبك لا ينفيه عن جسدي
سوى ثرى لدماء الانس شراب

*

صحبت عيشا أعانيه ويغلبني
مثل الوليد يقود المصعب السدما

وآمال النفوس معطلات
ولكن الحوادث ينتقضنه
فلا الأيام تفرغ من أذاة
ولا المهجات من عيش غرضنه

*

أما وفؤاد بالغرام قريح
ودمع بأنواع الهموم سريح
لقد غرّت الدنيا بينها بمذقها
وان سمحوا من ودّها بصريح
أليلى « وكلّ أصبح ابن ملوّح
ولبنى « وما فينا سوى ابن ذريح
وليس لنا في مدة العيش راحة
فكيف بموت من أذاك مريح
وتعقد سلوان الفتى عنك نفسه
بأذيال برق أو ذوائب ريسح

*

بلىّ الجبل والغزالة فوق الأر
ض لم ييل خيطها المغزول
وأنا العوّد ، قلبه أضمر الشو
ق ولكن ظهره مجزول

*

ودنياك التى عشقت وأشقت
كذاك العشق ، معروفًا ، شقاء

سألناها البقاء على أذاها
فقلت : عنكم حظر البقاء
بعد واقع فمتى التسدانى
وبين شاسع فمتى اللقاء

*

أبى القلب إلا أمّ دفر كما أبى
سوى أم عمرو ، موجع القلب هائم
هى المنتهى والمشتهى ، ومع السها
أمانى منها دونهن العظمائم

*

أطارق همّ ضاف ، هل أنت عاذر
متى لم تجد لى عند مرتحل طرقا
وأعوزنى ماء أزيل به الصدى
فلا عيش ان لم أشرب الكدر الطرقا
وحبى للدينا كجبك خالصا
وفى عنقينا من هوى جعلت ربقا

*

لُبْتُ حَوْلَ الْمَاءِ مِنْ ظَمَأٍ
ان غزبى ماله مرس
مهجتى ضد يحاربنى
أنا منى ، كيف أحترس !

*

نفسى بها ونفوس القوم ملهجة
ونحن نخبر أنا لا نبسالىها
أمرتى بسلوً عن خوادعها
فانظر ، هل انت مع السالين ساليها
ولا ترى الدهر الا من يهيم بها
طبعا ، ولكن باللفظ قاليها

قد يقال انه كابد هذا الشغف بالدنيا ، فى مستهل عهده
بالعزلة ، ثم برىء منه على تطاول الزمن . ولكن من آيات اللزوم
ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من ظمأ ، ويشكو وطأة الحرمان ،
الى عهد المشيب الذى تأخر . وهو وان أحس الشيخوخة نفسيا
فى عز رجولته ، قبل انسحابه من بغداد ، الا أن شيبه تأخر طويلا
عن أوانه المعهود ، بدليل قوله فى اللزوم :

أيا مفرقى هلا بيضضت على المدى
فما سرنى أن بت أسود حالكا
قيح بنود الشيخ تشبيه لونه
بنود الفتى ، والله يعلم ذلكا

وقوله :

تأخر الشيب منى مثل مقدمه
على سواى ، ووقت الشيب قد حضرا
وما ينفع الغريب والضعف واقع
إذا كان لون الرأس غير هجان

ولدينا مع ذلك ، نصوص من اللزوميات ، يتحسر فيها على
الحرمان ، بعد أن جاوز الخمسين من عمره :

أسير عن الدنيا وما أنا ذاكر

لها بسلام ان أحداثها خمس

ضرورة ما حالين : ما لكعابها

ولا الركن ، تقبيل " لدى " ولا لمس

ولم أرث النصف الفتاة ولم ترث

بى الربع ، بل ربع تطاول أو خمس

لعمري لقد جاوزت خمسين حجة

وحسبى عشر فى الشدائد أو خمس

وأجهر حينا ، ثم أهمس تارة

وسيان عند الواحد الجهر والهمس

وفى الخمسين شكاً ظمأه وجذب حياته :

علقت بجبل العيش خمسين حجة

فقد رث حتى كاد ينصرم الجبل

وهل ينفع الطل الذى هو نازل

بذات رمال عندما جحد الوبل

وقال فى شيخوخته ، وهو يدنو من النهاية :

تباركت يا ربّ العلا أنت صغتها

فليتك فى أرزائها لم تبارك

أعاقها عند الوداع تشبها

وكيف وداع بين قال وفارك

ولدينا أيضا ، أثر لأبي العلاء من مرحلة الشيخوخة « أعنى (رسالة الغفران) التى أملاها حوالى سنة ٤٢٤ هـ وهو فى الستين من عمره ، بعد أن أمضى نحو ربع قرن فى مجاهدته . والرسالة معبرة عن أمانيه الموءودة « مشحونة بأصداء أشواقه المكبوتة ، وصليل القيود التى كبلت نفسه بالحرمان الباهظ ، وقد أطلق لها العنان فى رؤيا عجيبة من رؤى يقظته وهذيان أمانيه « فصورت لنا عالمه الآخر كما تمثله وكما اقترحه عليه حرمانه .

فالمقيد الذى لم يغادر محبسه منذ عاد من بغداد الى أن مات ، والذى ألجم عواطفه الهادرة وكبت انفعالاته الجياشة ، جاءت جنته حافلة بالحركة بريئة من الهدوء والسكون . فيها رحلات صيد ، وزيارة ونزهة ، وقد تعنف الحركة فتصير عراكا ومنافرة وعردة ، ويعلو الصوت فيصير صياحا وجعجعة . على أن هذه الحركة الحسية لا تقاس بالحركة النفسية العنيفة التى تموج بها جنة الغفران وتضطرب بها نفوس الموعودين بها ، فهم لا يبرءون من تعجب وحنين وتشوف وانتظار ، ومن خوف وجذر واشفاق وخيبة ، ومن اغراء وعتاب ، ومخاصمة ولمز وتعبير وتنازع بالألقاب . ويبلغ الانفعال ببعضهم أقصاه فيخرجهم عن طورهم « وتراهم يتضاربون ويتلاحون ويتشامتون ويشتمون ..

وصائم الدهر الذى حرم على نفسه لذات الدنيا ، ملأ جنته بالخير والنساء ، وتقنن فى حشد صنوف من اللذائذ الحسية ، والشهوات المصورة : فأطباق اللحوم تقدم فى وليمة بالجنة على

ما يشتهي المدعوون اليها من الأدباء ، وأصناف الشراب تأتيهم
كما يقترحون ، والحدود العيون يتشكلن على الصورة التي ترضيهم
أو تخطر في بالهم : يلتقي « ابن القارح » باثنتين من أجمل نساء
الجنة ، ثم يزهده فيهما أنهما كانتا من نساء الدنيا ! ويشتهي أن
ينعم بالحدود العيون ممن قال فيهن الله تعالى : « حدود مقصورات
في الخيام . لم يطمئنهن أنس قبلهم ولا جان » فيمضي به الملك الى
شجر الحدود ، فيكسر ثمرة فتخرج منها حورية باهرة الحسن ،
فيسجد اعظاما لله التقدير ، ويخطر له وهو ساجد أن هذه
الحورية ، على حسنها ، ضاوية نحيلة ، فيرفع رأسه وقد صار
من ورائها ردف ضخيم يهوله ، فيسأل الله تعالى أن يقصر عودها
على قدر معين ، فيقال له : « أنت مخير في تكوين هذه الجارية
كما تشاء » .

ومشاهد اللذة في جنة المحرور ، تعرض مشخصة مثلة :
يسأل ابن القارح حوريته أن تتبعه بين كنان العنبر وأنقاء
المسك ، فيتخلل بها هضاب الفردوس ورمال الجنان ، فتقول :
أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بي فعال الكندي ، امرئ
القيس ، في قوله :

فقمتم بها أمشي تجر وراءنا

على اثرنا أذيال مرط مرحل

(الأبيات)

« ويعرض له حديث امرئ القيس في دارة جلجل ، فينشئ
الله جل عظمته حورا عينا يتماقلن في نهر من أنهار الجنة » وفيهن

من تفضلهن كصاحبة امرئ القيس . ويعقر لهن الراحلة ، فيأكل
ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصفة عليه من امتاع ولذاذة . «
ويلتقى ابن القارح وعدى بن زيد ، وقد خرجا في رحلة
صيد ، بأبى ذؤيب الهذلي ، وبين يديه ناقة عائذ مفضل ، يحتلب
لبنها في اناء من ذهب فيسألان متعجبين : « أحتلب مع أنهار من
لبن ؟ كان ذلك من الغبن » فيقول : « لا بأس ، انما خطر لى
ذلك مثلما خطر لكما القنص ، وانى ذكرت قولى فى الدهر
الأول :

وان حديثا منك ، لو تعلمينه

جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث تتاجها

يشاب بماء مثل ماء المفاصل

فقيض الله بقدرته لى هذه الناقة عائذا مفضلا ، وكان بالنعم
متكفلا ، فقامت أحتلب على العادة ، وأريد أن أشوب ذلك
بضرب نحل .. فاذا امتلا اناؤه من الرسل — اللبن — كون
البارى جلت عظمتة خلية من الجواهر ، رتع ثولها — نحلها —
فى الزهر ، فاجتنى أبو ذؤيب ، ومزج حليبه بلا ريب ، فيقول :
ألا تشربان ؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرعا ، لو فرقت على
أهل سقر لفازوا بالخلد شرعا .

ويشرب ابن القارح من خمر الجنة التى وعد بها المتقون
« لا يصدعون عنها ولا ينزفون » فيذكر ما كان يلحق شارب
الخمى فى الدنيا من نشوة وفتور ، « فيختار أن يعرض له ذلك من

غير أن ينزف له لب .. فاذا هو يخال في العظام الناعمة ديب
نمل ، أسرى في المقمرة على رمل ، فيترنم بقول اياس بن الأرت :
أعاذل لو شربت الخمر حتى

يظل لكل أنملة ديب

اذن لـمـذرتنى وعلمت أنى

لما أنفقت من مالى مصيب «

والموعدون بالجنة ، كما تمثلها أبو العلاء ، لا يحتاج أحدهم
الى أن يعبر عما يشتهى فيكون له ما اشتهى وأراد ، بل يكفى
أن تخطر له الخاطرة أو يهجس فيه الشوق ، ليجد ما يشتهى
محققا « فعزّ الهنا القديم الذى لا يعجزه تصوير الأماني ،
وتكوين الهواجس من الظنون ! » .

وأبو العلاء الضريع ، الذى سشمع فى صباه يحمد الله على
العمى كما يحمده غيره على البصر ، والذى تصوره فى
شيخوخته قد ألف محنته واعتادها ، وتكلف الصبر عليها والرضى
بها ، هو الذى يتمثل جنته ، وليس فيها من امتحن بعاهة فى الدنيا
الا رفعت عنه . بل انه لا يكتفى بأن يرتد الأعمى بصيرا ،
والأعشى أحورا ، والهرم شابا ، والسوداء بيضاء ، والبخراء طيبة
النكهة ، وانما يلتبس تعويض كل منهم ، تعويضا لا يقترح مثله
سوى المبلى المحروم : فأحدث أهل الجنة بصرا ، هم الذين حرموا
نعمة الابصار فى الدنيا . وأجملهم عيونا ، عثوران قيس ، وأطيب
نسائها نشرا وأذكاهن رائحة فم ، امرأة كانت تدعى فى الدنيا

« حمدونة الحلبية » وقد طلقها زوجها بائع السقط ، لأنه كره رائحة فمها . وأنصعن بياضا ، جارية كانت تدعى « توفيق السوداء » وتخدم في دار العلم ببغداد ! والأعشى يبدو في جنة أبي العلاء « وقد صار عشاء حورا معروفا وانحاء ظهره قواما موصوفا » .

وتلك هي جنة الضرير المحروم الحبيس ..

فإذا لم تكف في الكشف لنا عن عالمه النفسى الذى غيبه عنا رواج أقواله في مقت الدنيا ولعنتها ، فلنضف إليها أن أبا العلاء لم ينفذ همومه وأشواقه وينفس عن كبته وحرمانه ، بهذا الأسلوب الخيالى فحسب ، بل جهر كذلك بكل ما كان يؤوده من ذلك ، وأذاع سره المطوى ، دون احتيال عليه بآبن القارح الذى متعه بفردوسه المتخيل ، ودون مداراة بأسلوب الرمز وشطحات الأوهام وهواجس الرؤى .

تحسر على امتناع الدنيا عليه ، وحرمانه من البنين وهم زينة الحياة ، وإن حاول التسلى بأنه إنما رفض الولد ، ليجنبه محنة الوجود ، وليجنب نفسه الفجيرة في الولد بعقوق أو شكل :

إذا لم يكن خلفى كبير يضيئه

حسامى ، ولا طفل ، ففيم حياتى ؟

وما العيش إلا علة برؤها الردى

فخلى سبيلى أنصرف لطياتى



ألا تفكرت قبل النسل في زمن
به حلت ، فتدري أين تلقيه ؟

✱

لو ان بنى أفضل أهل عصرى
لما آثرت أن أحظى بنسل
فكيف وقد علمت بأن مثلى
خسيس لا يجىء بغير فسل

✱

ومن رزق البنين فقير ناء
بذلك عن نوائب مسقعات
فمن ثكل يهاب ومن عقسوق
وأرزاء يجئن مصمات
وان تعظ الاناث فأى بؤس
تبين فى وجوه مقسمات
ودفن والحوادث فاجعات
لاحداهن احدى المكرمات

✱

أرى ولد الفتى عبئا عليه
لقد سعد الذى أضحى عقيما
فاما أن يرييه عدوا
واما أن يخلفه يتيمما

واما أن يصادفه حمام

فيبقى حــــــزنه أبدا مقيما

وصاح بالدنيا ٥ من أعماق وجدانه الجريح المحترق بنار
الظلام :

وأصبحت في الدنيا غينا مرزا

فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن

فان تحكمى بالجور فى وفى أبى

فلن تحكميه فى بناتى ولا فى ابنى

وأوقدت لى نار الظلام فلم أجد

سناك بطرفى ، بل سناك فى ضبنى

وأذاع سره ٥ بصراحة مثيرة ، مقرا بأنه ما زهد فى النساء

عن طيب خاطر ، ومتحسرا على ما فاته منهن :

واذا الفتى كره الغوانى واتقى

مرضا يعود ، وضره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحياة وكاذب

من قال عنه : يبيت وهو منعّم !

✱

أوانى همّ فألقى أوانى

وقد مر فى الشرخ والعنفوان

زوانى خوف المقام الذمى

م عن أن أكون خليل الزوانى

وعندي سر بذى الحديد
ث كنت عنه في العالمين الغواني
إذا رملة لم تجيء بالنبات
فقد جهلت أن سقتها السواني !

*

انى أوارى خلتي فأريهم
رياً ، وفي سر الفؤاد أوار

*

والمرء ليس بزاهد في عادة
لكنه يترقب الامسكانا

*

أريد ليان العيش في دار شقوة
وتأبى الليالى غير بخل وليان
ويعجبنى شيان : خفض وصحة
ولكن ريب الدهر غير من شانى
وما جبل الريان عندي بطائل
ولا أنا من خُود الحسان بريتان

*

أسير عن الدنيا وما أنا ذاكر
لها بسلام ان أحداثها خمس
ضرورة ما حالين : ما لكعابها
ولا الركن ، تقبيل " لدى " ولا لمس

*

خمر الریق لسن بكل حال
على طلابهن محرمات
ولكن الأوانس باعثات
ركابك فى مهالك مقتات

*

أريد الاناخة فى منزل
وقد حذيت لسواه جمالى
فمن مخبرى : أغریق البحرا
ر ألقى الردى أم دفين الوصال
هویت انفرادى كىما يخف
عن أعاشر ثقل احتمالى
أما لى فىما أرى راحة
مدى الدهر من هذيان الأمالى

*

ألم ترنى حميت بنات صدرى
فما زوجتھن وقد غسنه
وقال الفارسون : حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورئضت صعب آمالى فكانت
خیولا فى مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خیارها عنى خسنه !

واذكر ما مرّ بك من قوله في الفصول والغايات :
« أحب الدنيا وآلتها ليست في » وقد يئست من بلوغها
واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال ؟ » .
« انما أنا رجل بئلى بالصدى ، لا يجد أبدا موردا .. فهو
ظمان أبدا » .

فاذا سألت : ففيم كانت اذن أقواله في مقت الدنيا وتفننه
في وصف شرها ولؤمها ، قلنا ان الرجل تمنى — وقد أعوزته
آلتها — لو استراح بالصد عنها وسكن الى يأسه من نيلها ،
فكان اسرافه في ذمها نوعا من الالاح في المجاهدة وحمل
النفس على الزهد فيها ، وأعياء مع ذلك أن يقهر في فطرته ما رسخ
فيها من تعلق بالدنيا وشغف بها واشتهاء للذاتها ، فكان هذا الذى
سمعت من لهاث الظمأ ، وحسيس النار المشبوبة في أعماقه ،
والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاء فيه ولا راحة منه :

أليلى وكلّ اصبح ابن ملوح
ولبنى وما فينا سوى ابن ذريح
ولم يطرحك المرء عنه لعبرة
يراها بمرفوت العظام طريح
وليس لنا في مدة العيش راحة
فكيف بموت من أذاك مريح
وتعقد سلوان الفتى عنك نفسه
بأذيال برق أو ذوائب ريح

وما زال في بلواكٍ مذيوم وضعه
عليك ، الى أن عاد رهن ضريح

طلبتُ شفاء منكِ واهتجت سائلا
بذاك أبا سلمان وابن بريح
ومن هنا كان عذابه وكانت مجاهدته ..

لم يجد ، مدى الدهر ، راحة من هذيان أمانيه ..
ولا ظفر باليأس من دنيا يحبها وآلتها ليست فيه !
وبلغت به المكابدة أقصى مداها ، ففكر في الخلاص منها
بالموت ، وهمّ وهو في الستين من عمره ، بأن يقتل نفسه
ليستريح ؛ لولا أنه أشفق من التبعة ، وخاف غوائل السبيل بعد
الموت ، فذلك قوله في (رسالة الغفران) :
« قد كنت ألحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ،
ولكننا أخشى قدومي على الجبار .. » .

ولم تكن خاطرة عابرة ، بل فكرة ألحت على وجدانه طويلا ،
ونظقت بها آثار له أخريات ، فقال في اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة
مخشية لاغترها الناس أفواجا
وكان كلٌّ من ألفت الدنيا عليه أذى

يؤمها تاركا للعيش أمواجا
كأس المنية أولى بي وأروح لى
من أن أعالج اثراء واحواجا

وقال في (الفصول والغايات) محمداً طريقته للخلاص من
محنة الحياة لو استطاع :

« لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى
أخلص من ضنك الحياة ، ولكنى أُرهب غوائل السبيل .. » .

وكم تمنى لو أن أحداً باعه حياته بميته سهلة ، فيتخلى له عنها
غير فادح :

من بعنى بجياتى ميتة سرحا

بايعته ، وأهان الله من ندما

تكن أحداً لم يملك أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك
هو لنفسه أن يريجها بالموت ، فلم يبق له إلا أن يلوذ بالله ضارعا ،
أن يجعل بخلاصه من الأولى وأنه تعانى لمرجو أن يلفظ به في
الأخرى ، بعد ما ابتلاه به في دنياه :

« والطف مولاي بضعيفك اذا اقترى ، ونزل في بطن الأرض
عن القرى . ضعيفك ، ولكل ضيف قرى ! ما أجدرك بالرافة
وما أحرى » .

« حمداً لك الهى ! لا أعلم وقت اسكنك لى في دار البلاء ،
وقد عشت فيها ما شئتَ وأعيش فيها ما تشاء ، وأنا شاك اليك
أنقال الزمن . فاذا قضيت عنها الرحلة فأعنى على تلك الغصص
والعمرات ، فانى منها فرق ، وبى من الحياة ملل ! » .

وما كان أشد تبعه من الحياة ، وتوقه الى الراحة من
عذابه بها :

دعا لى بالحياة أخو وداد
رويدك انما تدعو علينا
وما كان البقاء لى اختيارا
لو أن الأمر مردود اليّا

*

ان يرحل الناس ولم أرتحل
فمن قضاء لم يقبوض الى
خلفت من بعد رجال مضوا
وذاك شر لى ، وشر على

*

اذا غدوت بطن الأرض مضطجعا
فثم أفقد أوصابى وأمراضى

*

اذا طفت فى الثرى أعين
فقد أمنت من عمى أو رمد
وما أقسى أن يكون الموت أملا للشاعر الذى عمق احساسه
بمحنة الموت ، ورأى فيه مأساة الانسان الكبرى ، وجاءت مراثيه
فى أهله وأصحابه ، مرثية للانسانية المقودة برغمها الى البلى
والعفن ، والدود والتراب ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم
عاصم ؛ ولا تدفعه عنها حيلة طيب ، أو رقية راق ، أو دموع
أهل وأحباب !

وانه مع ذلك ليقول فى مرثيته لأبيه :

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما
 جنى النحل صناف الشقاء الذى نجنى
 فما رغبت فى الموت كذّر "مسيرها"
 الى الورد خمس ، ثم يشربن من أجن
 يصادفن صقراً كل يوم وليلة
 ويلقن شرا من مخالفه الحُجْن
 ولا قلقات الليل بات كأنها
 من الأين والادلاج بعض القنا اللدن
 وخوف الردى آوى الى الكهف أهله
 وكلّف نوحا وابنه عمل السفن
 وما استعذبتّه روح موسى وآدم
 وقد وُعِدَا من بعده جنتى عدن
 قالها وهو فى الثلاثين من عمره ، وظل الى آخر العمر يجاهد
 حبه للدنيا ، ويثن من عجزه عن السلو عنها :
 مهجتي ضد يحاربني أنا منى ، كيف أحترس ! ؟

الأديبُ الحُرُّ

أعاذل قد ظلمتنا الملمس ————— وك « ونحن على ضعفنا أظلم
(اللزوميات)

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، ما لم نتحرر من
فكرة اقتصاره على الدنيا وزهده النفسى فيها ، بمجرد أن أعلن
انسحابه منها ، اذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له »
كما يقول الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، و « ملأ قلبه عن لذاتها
بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما يقول أستاذنا الدكتور طه
حسين ، أو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه ، لما كان فى
سلوكه ما يغرى بالوقوف عنده أو يحمل على شىء من التقدير ،
اذ يكون الحرمان هينا عليه لا يحمله أدنى مشقة ، ما دام يستجيب
لما فى طبعه من زهد فيما حُرِّم منه ، وعزوف عما امتنع عنه .

وانما كان سلوكه موضع تقدير ، لأن الرجل استطاع مع
حبه للدنيا وعجزه عن السلو عنها ، أن يصبر على ذلك الحرمان
الطويل الصارم ، فقدّم لنا مثلاً فذا لبسالة المجاهدة ، وكشف
عما تطيقه البشرية من بطولة الاحتمال .

واذا لم يكن قد أفلح فى قهر حب الدنيا فى نفسه ، فانه قد

استطاع أن يمضى في مجاهدته لها بارادة عجيبة ، وصمد للتجربة حتى آخر العمر . على قسوة ما كابد من أشواق بشريته ، وما احتمل من جدل خصومه ومناظريه ، وانكار من تقموا عليه مخالفة الجماعة والخروج على سنتها وأعرافها .

وفي الفصل الذى مضى عن مناخ العصر ، ما يعطينا ملامح البيئة العامة التى عاش فيها أبو العلاء وما وصلت اليه من شر وفكر . وقد اعتزلها ولكنها لم تعتزله ، وانسحب منها لكنها شغلته وشغلت به ، ومن ثم لم يكن فى طاقته أن يجمّد احساسه بشرور العصر ويعطل تفكيره فى فساد المجتمع ، وهو قد عاد مع العزلة مرهف الحس يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

ولا كان بمستطيع أن يلجم لسانه وقد تحرر من قيود الرغبة والرغبة ، وهو ما باع الدنيا على حبه الفطرى لها ، الا لكى يشتري كرامة نفسه وحرية رأيه وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذى يخونه غيره نفاقا أو رياء ..

وماذا يستطيعون أن ينالوا منه ؟

هل يحددون اقامته ، أو يمسكون عنه الرزق ، أو يقطعون عنه صلة تأتية من ذى جاه ؟ أو يؤذونه فى عرضه وبنيه ؟ لقد سد عليهم كل طريق ..

حدد لنفسه مكانا لاقامته لا يبرحه ، وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يتلمس فيه زيادة ، وليست له زوجة تثقله بعبء أو مطلب ، ولا ولد يحمل همهم ويجبن بسببه .

وانه لتقى العرض طاهر السلوك نظيف السيرة ، عف اليد
والضمير .

فماذا بقى له عندهم ، وقد انسحب من السباق وتخلى لهم
عن الدنيا وما فيها ؟
باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى حريته وكرامته ،
في عصر أذل الحرص فيه أعناق الرجال .

ووجد رسالته في انتظاره منذ انسحب من بغداد ، احتجاجا
عمليا على فساد البيئة وضلال المقاييس واختلال الموازين ..
فهو وحده ، ولا أحد سواه ، من يجرؤ على أن يصدع جبروت
الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

ملّ المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

*

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت

أمور فما ألفت لهم يد راتق

*

أما لأمير هذا المصر عقل

يقيم عن الطريق ذوى النجوم

فكم قطعوا السبيل على ضعيف

ولم يغفوا النساء من الهجوم

هم فاس ولو رجموا استحقوا
بأنهم شياطين الرجوم
إذا افتر الليب رأى أمورا
ترد الضاحكات الى الوجوم

*

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معا
ونحن بعدهم في الأرض قطان
ان العراق وان الشام مذ زمن
صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الأتام شياطين مسلطة
في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم
ان بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه النجر : فالرومي منطقته
كمناطق العرب ، والطائي مرطان
متى يقوم امام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجال وغيطان
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى
كأنما كلها للابل أعطان

*

كل الديار ذميم لا مقام به
وان حلت ديار الوبل والسرهم

ان الحجاز عن الخيرات محتجز
وما تهامة الا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليثم في يَمَن
ويشرب الآن تثيرب على الفهم

*

يا رب أخرجنى الى دار الرضى
عجلا فهذا عالم منكوس
ظلوا كدائرة تحول بعضها
من بعضها ، فجميعها معكوس
وأرى ملوكا لا تحوط رعية
فعالم تؤخذ جزية" ومكوس

*

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ أمرهم ويقال : ساسه
فأف من الحياة وأف منى
ومن زمن رئاسته خساسة

*

ظلم مستضعف وأخذ مكوس
وحياة فى عالم منكوس

*

أيا والى المصر لا تظلمن
فكم جاء مثلك ثم انصرف

تواضع اذا ما رزقت العلاء
 فذلك مما يزيد الشرف
 وان ألبس الله ثوب الشفاء
 فلا تؤثرن عليه الترف
 تغيض الميساء وقد طالما
 تيمها وارد فاغتـرف
 ومن أمتته خطوب المنون
 تخوف من هرم أو خرف
 يقارف مستكبرات الذنوب
 ويفعل عن ذنبه المقتـرف

*

بكل أرض أمير سوء
 يضرب للناس شر سـوء
 قد كثر الفس وأستعانت
 به الأشـداء والأركـه
 فخلتهم والذي أرادوا
 وحل بالقدس أو بمكه
 صكهم الدهر صك أعمى
 تكتب أيدي الفناء صكه

*

يسود الناس زيد ثم عمرو
 كذاك تقلب الدولات دوله

ورب شهادة وردت بزور
أقام لنصها القاضى عدوله
ومن شر البرية رب مثلك
يريد رعية أن يسجدوا له

*

حكم الناس غواة مثلما
حكمت قبل حلة وزلم

*

قد أسرف الناس فى الدعوى بجهلهم
حتى ادّعوا أنهم للخلق أرباب

البابهم كان بالذات متصلاً
طول الحياة وما للقوم ألباب

*

لعمرك ما فى عالم الأرض زاهد
يقينا ولا الرهبان أهل الصوامع

أرى أمراء الناس يمسون شرهم
إذا خطفوا خطف البزاة اللوامع

وفى كل مصر حاكم فموفق
وطاغ يحابى فى أخس المطامع

يجور فينفى المثلث عن مستحقه
فتسكب أسراب العيون الدوامع

ومن حوله قوم كأن وجوههم
صفاً لم يُلَيَّن بالغيوث الهوامع
عدول نهم ظلم الضعيف سجية
يُسْمُون أعراب القرى والجوامع
وانه ليحقر كبرياء الملوك ويسفه غرورهم بمثل قوله :

كذب الذى سمى المملك قاهرا
نحن الأذلة والمليك القـاهـر
وكذاك يدعى طاهرا من كـئـه
نجس ، ويفقد فى الأنام الطاهر

*

تلقب مملك "قاهرا من سفاهة
ولله مولاة الممالك : والقهـر

*

لم أرض رأى ولاية لقبوا
ملكا بمقتدر وآخر قاهرا
هذى صفات الله جل جلاله
فالحق بمن هجر الفؤاة مظاهرا
كم قائم بعظاته متفقه

فى الدين ، يوجد حين يكشف عاهرا
وعلمت قلب المرء يغرق فى هوى
دنياه ، خاب مكاتما ومجاهرا

*

يَسْمَوْنَ بِالْجَهْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ
وعبد العزيز وعبد الصمد
وما بلغوا أن يكونوا له
عييدا ، وذلك أقصى الأمد !

وهو وحده ، الذي يستطيع أن يفضح نفاق الشعراء وزيف
محترفي التدين ونفعية أصحاب المذاهب بمثل قوله :
فِرَقًا شَعَرْتُ بِأَنهَآ لَا تَقْتَنِي
خيرا ، وأن شرارها شعراؤها
وتجادلت فقهاؤها من جهها
وتقرأت لتناها قسراؤها

✽

وما أدب الأقوام في كل بلدة
إلى المينن الا معشر أدباء

✽

قد حُجِبَ النُّورُ والضياء
وانما ديننا رياء
وهل يجود الحيا أفا
منظويا عنهم الحياء
يا عالم السوء ما علمنا
أن مصلك أتقيا

لا يكذبنَّ امرؤ جهول
 ما فيك لله أولياء
 ويا بلادا مشى عليها
 أولو افتقار وأغنياء
 اذا قضى الله بالمخاضى
 فكل أهليك أشقاء
 *

فتقدت في أيامك العلماء
 وادلهمت عليهم الظلماء
 وتغشى دهماءنا الغي لَمَّا
 غطت من وضوحها الدماء
 خلنى يا أخى أستغفر الله
 فلم يبق في الا الذمماء
 ويقال الكرام قولا وما في الم
 صر الا الشخصوس والأسماء

*
 رويدك قد غثرت وأنت حمر
 بصاحب حيلة يعظ النساء
 يحرم فيكم الصمباء صبا
 ويشربها على عمد مساء
 تحسأها ، فمن مزج وصرف
 يُعلّ ، كأنما ورد الحساء

يقول لكم : غدوت بلا كساء

وفي لذاتها رهن الكساء

*

يقولون : في المصر العدول ، وانما

حقيقة ما قالوا العدول عن الحق

*

تستروا بأمور في دياتهم

وانما دينهم دين الزناديق

نكذب العقل في تصديق كاذبهم

والعقل أولى باكرام وتصديق

*

ما فيهم بر ولا ناسك

الا الى تقع له يجذب

أفضل من أفضلهم صخرة

لا تظلم الناس ولا تكذب

لعل أناسا في المحارب خوفوا

بآى ، كناس في المشارب أطربوا

*

اذا رام كيدا بالصلاة مقيمها

فتاركها عمدا ، الى الله أقرب

فلا يمس فخارا من الفخر عائد

الى عنصر الفخار ، للنفع يضرب

لعل اذاء منه يُصنع مرة
فياكل فيه من أراد ويشرب
ويشحم من أرض لأخرى وما درى
فواها له بعد البلى يتغرب

*

وما احتجبت عن الأقوام من نسك
وانما أنت للنسكراء محتجب

*

لعمرك ما فى عالم الأرض زاهد
يقينا ، ولا الرهبان أهل الصوامع

*

تدبّن غاويهم حذارَ أميرهم
فلما انقضت أيامه ، ذهب النسك

فأصبح من بعد التمسك بالتقى ،
لأردانه من طيب فاجرة مسك

وهل ينفع التمسك ، والمسك تحته
حيث نبث والذى فوقه المسك

*

إذا رؤساء الناس أمثوا تنازعوا
كئوس الأذى ، هل فى الزجاجة عنده

ولم يرضهم شرب المدامة أذهبت
حجى النفس الا أن يمازجها الدم

جهلت أقاضى الرىّ أكثر مائما

بما نصّه ، أم شاعر يتغزل

وأعلم أن ابن المعلم هـازل

بأصحابه والباقلاني أهزل

وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى

فأض كما غنّى ليكسب زلزل

*

أرجئوا أو اعتزلوا فانى

عن مقامكم بمغزل

*

وليس خبر يبدع فى صحابته

ان سام نفعا بأخبار تقولها

وانما رام نسوانا تزوجها

بما افتراه ، وأموالا تمولها

لا يخلعنك داع قام فى ملا

بخطبة زان معناها وطولها

فما العظمت وان راعت سوى حيل

من ذى مقال على ناس تحوّلها

ثم من غير أبى العلاء يجرؤ على أن ينغص عيش الظالمين ،

بالالحاخ فى مثل هذا الوعيد بدعوة المظلوم :

خف دعوة المظلوم فهى سريعة

طلعت فجاءت بالمذاب النازل

شُرِّبَ الأمير عن البلاد وما له
الا دعاء ضعيفها من عازل

*

لا شيء في الجـو وآفاقه
أصعد من دعوة مظلوم
وهو الذي ينلك أن يفضح نفعية أصحاب المذاهب في عصره
بمضى قوله :

انما هذه المذاهب أسبا ب ليطب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء
كأننى قد جمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء
ويبنى ضراوة الضبقية ، وشور العصر بهذه اللعنة :

خاب الندى سار عن دنياه مرتحلا
وليس في كفه من دينه عرف
لا خير للمرء الا خير آخرة

يبقى عليه فذاك العز والشرف
نرجو السلامة في العقبى وما حسنت

أعمالنا فيرجى الفوز والعرف
ما بان قوم عن الأولى بما جمعوا

من الحطام ولكن بالذى اقرقوا
عبرى الفقير وبالدينار كسوته
وفي صوانك ما أعداده خرف

*

والناس ضأن تساوت في غرائزها
يلقون بالأرض كقًا كلما افترعوا
ويدعى الرتبة العليا أخسهم
فما يجاب لهم داع اذا زرعو
وأدرکوا بدعاويهم مدى زحل
من الرغام بما قاسوه أو ذرعوا

*

اتق الواحد المهيـ	من فالله أول
ان قسوما لما يكو	ن حراما تأولوا
رغبوا الناس في المحا	ل وراعوا وهو لـوا
ورأى الله أنه	كذب ما تقولـوا
ضربوا في البلاد عصـ	را فطافوا وجولـوا
خولوا نعمة فلم	يشكروا ما تخولوا
واستطالت على الوري	عصب ما تطولـوا
طلب الناقد القليـ	ل فمانوا وسولوا
ظلموا البائس الفقيـ	ر وأعطوا وفولوا
واستمالوا قلوب قـو	م الى أن تمولـوا
فانظـروا الآن فيهم	أى غول تقولوا

*

يباين شكل غيره في حياته
فان هلكا ، لم تلتف بينهما فرقا

ومن يفتقد حال الزمان وأهله
 يذم بهم غربا من الأرض أو شرقا
 يجد قولهم مينا وودّهم قِلى
 وخيرهم شرا وصنعتهم خرقا
 وبشرهم خدعا ، وفقرهم غنى
 وعلمهم جهلا وحكمتهم زرقا
 إذا طلبوا أقصى العِلا اتخذوا له
 بصمّ العوالى فى ترائبكم طرقا
 إذا كنتم أوراق أثل زهوا لكم
 جراد نبال كى تبيدكم ورقا
 هم الناس : أجال شوامخ فى الذرى
 وأودية لا تبلغ الأكم والبرقا
 فسكران يسترقى ويبدل بسلة
 وآخر صاحى اللب يغضب أن يترقى

*

عجت وكم عجب فى الزمان
 لرأى بنى دهرك الفائل
 فمقتالما أورثوا من غنى
 وما وهبوه من النائل
 فلا تمحلنّ لهم منّة
 ولو بيت فى صورة العائل

ألم ترني وجميع الأناس
م في دولة الكذب الذائل

*

لعل الموت خير للبرايا
وان خافوا الردى وتهيبوه

أطاعوا ذا الخداع وصدقوه
وكم نصح النصيح فكذبوه
وغير بعضهم أقوال بعض

وأبطلت النهى ما أوجبوه

فلا تفرخ اذا رُجبت فيهم
فقد رفعوا الدنيا ورجبوه

وبدل ظاهر الاسلام رهط
أرادوا الطعن فيه وشذبوه

وما يحدث فانا أهل عصر
قليل في المعاصر منجبوه

صبحنا دهرنا دهرًا ، وقدمنا
رأى الفضلاء ألا يصحبوه

وغيظ به بنوه وغيظ منهم
فعدب ساكنيه وعدبوه

وهل ترجى الكرامة من أوان
وقد غلب الرجال مغلبوه

وهل من وقتهم أبغى وأطغى
على أى المذاهب قلبوه ؟
أجلتوا مكثرا وتنصّفوه
وعابوا من أقلّ وأنّبوه
ولم يرضوا لما سكنوه شيئا
الى أن فضضوه وذهبوه
فإن يأكلهم أسفا وحقدا
فقد أكل الغزال مريبوه
رجوا ألا يخيب لهم دعاء
وكم سأل الفقير فخيّوه
ألظثوا بالقبيح فتابعوه
ولو أمروا به لتجنبوه
مضت أمم على شرح الليالى
إذا عمدوا لعقد أرتبوه
وكم تركوا لنا أثرا مئيفا
يعود بأية متاوبوه
لقد عمروا ، وأقسمت الرزايا
لبئس الرهط رهط خربوه
فأما عاث فيه حاسدوه
وأما غاله متكسبوه
وللأرمين خطب مستفيض
يعوم بليّته متعجبوه

ولو قدروا على إيوان كسرى
لساموه الردى وتعقبوه
وقد منّوا برزق الله جهلاً
كأنهم لباغ سبيوه
أدبل الشر منكم فاحذروه
ومات الخير فيكم فاندبوه !

* * *

الليالى مغيرات السجيا
كم جعلن الزيفان شرب عيوف
قد غدا القوم للنضار فنالو
ه ، وبتنا ومن لنا بالزيوف
أو لا يبصر الفتى الذهب الأحـ
مر تحذى به نعال السيوف !

* * *

ماذا أفدت بأن أطلت تفكرا
فيها وقد أفنت ليلك ساهرا
وخمول ذكرك فى الحياة سلامة
ودهاك من أمسى لذكرك شاهرا
فتجنبن متوافقين على الأذى
متخالفين بواطننا وظواهرنا
وأخالنا فى البحر ليس بسالم
منه الذى ركب الغوارب ماهرا

ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل
ملأوا الديار ضواريًا ومزاهرا

* * *

أجل ، كان أبو العلاء وحده ، هو الذي يستطيع أن يقول
كلمة الحق في عصر أخرست السيوف والأطماع فيه الألسنة
والضمائر .

لقد تحرر من رغبة ورهبة ، ولكنه لم يتحرر من مسؤوليته
الأدبية في مقاومة الطغيان والفساد والنفعية ، والدفاع عن
الجمهير التي تهدر العصر حرمة إنسانيتها ، وكيف كان يستطيع
أن يسكت على البغي والشر ، وانه لكما قال :

فمالي لا أقول ولي لسان
وقد نطق الزمان بلا لسان

وبيعت بالفلوس لكل خزي
وجوه كالدنانير الحسان !

وقد اعتزل ، لكن أنى له أن يفر من تبعة الانتماء الى عصر
فسد ، وفسد أهله :

وأيّن فرارى من زمانى وأهله
وقد غص شرا نجدته والنهائم !

كلا .. لا مفر من التزامه أديبا بقضايا المجتمع ، التزاما فرضه
على نفسه تلقائيا ، في عصر لم يكن فيه مجال للتداعى بحق
الجماعة ه أو رسالة الأديب .

أو بعبارة أدق : فرضه عليه ضميره الحر وانسانيته المصفاة ،
وشعوره بتبعية الأدب وأمانة الكلمة .

* * *

وإذا كانت الجماهير قد تبلد حسها لطول ما ألفت من ظلم ،
وفداحة ما تعرضت له من تفرير وتضليل ه وما تسلط على
وجدانها من الحاح في تبرير فساد الأوضاع وطفیان الحكام ،
فإن أبا العلاء بوجدانه الحى وحسّه المرهف ه هو القادر أن
يحس لها ما تغفل عنه ، وأن يستشرف لما عز عليها أن تستشرف
له من العدل الاجتماعى والخير العام .

وانه مع ذلك ليضيق أحيانا بتبلدها وغفلتها فيصيح فيها بملء
السخط والمرارة والاثارة :

اسكت ، وخلّ مَـضْلَهم وشئونهم

ليسوقهم بعصاه أو بحسامه

تَصِحُّوا فما قبلوا ه وباعوا كَثُكثا

من شر معدنه ه بقيمة سامه

فكَأَنها غنم ترود اسـامـها

من لا يبالى كيف حال مسامه

*

أَمَا إِذَا مَا دَعَا الدَّاعِيَ لِمَكْرَمَةٍ
فَهُمْ قَلِيلٌ ، وَلَكِنْ فِي الْأَذَى حَشْدٌ
وَيَقْذِفُهُمْ بِحُكْمِهِ الصَّارِمِ :

أَعَاذِلْ فَدَ ظَلَمْتَنَا الْمُلُوكُ
وَنَحْنُ عَلَى ضَعْفِنَا أَظْلَمُ
ذَلِكَ لِأَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ مَا بَاعَ الدُّنْيَا عَلَى صَدَقِ حَبِّهَا ، إِلَّا لَكَيْ
يَشْتَرِي كِرَامَةً نَفْسَهُ وَحُرِّيَّةَ رَأْيِهِ وَصَدَقَ كَلِمَتُهُ ، بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَجْهَرَ بِمَا يَكْتُمُهُ غَيْرُهُ تَقِيَّةً وَمُدَارَاةً ، وَيَصْدُقُ فِيمَا يَزِيْفُهُ
قَائِلُونَ غَيْرُهُ ، مِنْ طُلَابِ الْمَنْفَعَةِ وَتِجَارِ الْأَدَبِ :

إِنْ عَذَّبَ الْمَيَّنَ بِأَفْوَاهِكُمْ
فَإِنْ صَدَقَى يَفْمَى أَعَذَّبَ
طَلَبْتَ لِلْعَالَمِ تَهْذِيبَهُمْ
وَالنَّاسَ مَا صَفَّقُوا وَلَا هَذَّبُوا



إِذَا مَدَحُوا آدَمِيًّا مَدَحَ
تَوْ مَوْلَى الْمَوَالِي وَرَبَّ الْأُمَمِ
وَذَلِكَ الْغِنَى عَنِ الْمَادِحِ —
بَيْنَ وَلَكِنْ لِنَفْسِي عَقَلْتُ الذَّمَّ
لَهُ سَجْدَ الشَّامِخِ الْمَشْمُخِ
عَلَى مَا بَعَرْنِيهِ مِنْ شَمَمِ

ومغفرة الله مرجوة

إذا حُبست أعظمى في الرمم

مجاور قوم تمشى الفضا

ما بين أقدامهم والقمم

رأيت بنى الدهر في غفلة

وليست جهالتهم بالأمم

فنشك أناس لضعف العقول

ونسك أناس لبعد الهمم

خصومة وانضمام

وقد نطقوا مينا على الله وافتروا

فما لهم لا يفترون عليـكا

(اللزوميات)

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم يكشف عن
غيهم ونفاقهم وزيفهم ؟

أو كان من المتصور ، أن يخلتوا بينه وبين الجماهير المضللة ،
يوقظ فيها الوعي والتمرد ، ويمزق عن وجدانها حجاب الغفلة ؟

مثل أبى العلاء من يعد فى نظر عصره — وكل عصر فاسد —
خارجا على المجتمع ، متمردا بسلوكه وقوله على أوضاع مقررة
ونظم سائدة وأعراف مألوفة . وليس من طبيعة الأشياء ، أن
يفخر المجتمع هذا الخروج المتحدى ، وأن يدع أبى العلاء يقول
ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحد مقابل ، ويفرض عليه عقوبة
التمرد والعصيان ..

واذ لا سبيل الى زجره بحرمان أو اغرائه بعتاء ، فان فى
عقيدته منفذا اليه ، من حيث لا يحتسب ..

مستغلين فى ذلك ، العاطفة الدينية للجماهير ، وموقنين أنها
ما تكاد تسمع عنه قالة سوء تجرح عقيدته ، حتى تصد عنه

وتنكره ، دون أن تترث لتتحرى التهمة أو تميز حقا فيها من باطل !

وليس من الضروري أن يكون خصومه هم الذين يتصدون لتجريحه ، بل حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام من غير أن يعرف مصدرها ، ليتطوع بترويجها حشد كافر ، من المتدينين البسطاء غضبا لدينهم !

وقلّ بين أحرار الفكر والكلمة ، من لم يتهم في عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرم على نفسه ما أحل الله من طيبات الرزق ، وجهر بأقوال تنم عن حيرته وشكه ، ومنها ما يستطاع تأويله بما ينكره الجمهور ؛ وبأقوال أخرى صريحة التجريح لرجال الدين ، على اختلافهم .. فمن هنا يمكن أن يظعن !

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة في حياته ، وظلت تلاحقه بعد موته :

ولعلك تذكر مما مر بك من حديث رحلته الى بغداد ، ما قيل عن مطاردة الفقهاء اياه لبيتين قالهما في اليد ، ديتهما خمسمائة دينار ، وتقطع في السرقة ولو كان المسروق ربع دينار ! ويروون من أخباره ، أن القاضي أبا يوسف عبد السلام القزويني قال : « قال لى المعري : لم أهج أحدا قط . فقلت له : صدقت ، الا الأنبياء عليهم السلام .. فتغير لونه » .

وأن القاضي المنازى قال : « اجتمعت بأبى العلاء المعري بمعرة النعمان وقلت له : ما هذا الذى يروى عنك ويحكى ؟

فقال : حسدنى قوم فكذبوا على وأساءوا الى . فقلت له : على
ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فقال : والآخرة
أيها الشيخ ؟ وظل يكررها .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة :

« ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل
سبيلا » .

واحتمل الرجل على مضض ، مفوضا أمره الى خالقه ، وموقنا
أن مثل هذا البلاء ضريبة مفروضة على من يتحدى العرف العام ،
وقلما سمح المجتمع لفرد أن يشذ عنه ويخرج عليه .
وهم بعد قد افترضوا على خالقهم ، فأى عجب فى أن يفترضوا
عليه ؟

وقد نطقوا ميتا على الله وافترضوا
فما لهم لا يفترضون عليك ؟

* * *

ولقد كانت صلابته فى الزهد والتعفف ، مظنة أن تحميه من
الظنة والريب ، لكنها اتخذت مطعنا فيه من حيث لا يدرى ..
فالعصر الذى هضم الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر
المنكرات ، كان له فى المسألة رأى آخر .

أو لم يحرم أبو العلاء ما أحل الله من طيبات الرزق ؟
أو لم يقنع بما يستره من خشن الثياب ، وما يقيم أوده من
ميسور النبات ؟

يمكن اذن أن يعد الزهد اثما ، والقناعة خطيئة ، والصوم
عن اللذات معصية ..

ومثل هذا جائز سائغ ، متى اختلت الموازين وضلت المقاييس :
لعمري لقد عز المباح عليكم وهان بجهل ما يثان ويحظر
وقد رأيت كيف تمارض داعي الدعاة ، ليخرج أبا العلاء على
الملأ من الناس ، وكيف أرهقه بخصومة أخرجت القضية من
نطاق السلوك الشخصي لزاهد متعفف ، الى جدل كلامي في حكمة
الخالق ونظام الكون وترتيب الكائنات وقضية الخير والشر ..
وأفلح في احراجه ، وأتعبه .

ومن قبل تعب المتكلمون في القضية ، وأعياهم أن يهتدوا
الى حلها .

لكنه لم يفلح في حمله على العدول عن مسلكه في رفض
الحياة انكارا لفساد عصره وشروط مجتمعه ..

ورضى — وهو في الخامسة والثمانين من عمره — « أن
يلقى الله سبحانه وهو لا يطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ،
فاذا وصل الى هذه الرتبة فقد سعد » .

ولقد حاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه
بالعودة الى الصف ، كي يعيش كما يعيش أهل العصر ويخضع
لنظم الجماعة وأعرافها ، وأطالوا مجادلته على ما سمعت ، وهو
يبدى العذر عن رفضه ، ويبرر سلوكه بما يظنه كافيا للاقناع ،
أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس .

دون أن يستجيب لما أرادوا .

وعوت الضباع في أثره ، وراحت تطارده حيث اختفى رهين
محبسه ، وكأنها تعتفيه وتلتمس لديه غذاءها :
قد استخفيت كالجسد الموارى
ولكن الطسوارق تختفيني
عفا أثرى الزمان وما أغبت

ضباع في المحلة تعتفيني

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهون عليه مما آله
وأضناه من افتراء المفترين : أساءوا تأويل أقواله ، وحرفوها
عن مواضعها ، وزيفوا عليه ما لم يقله ، فأحوجوه — على
المعروف من إباطه واستغنائه عن الأمراء والولاة — الى أن يكتب
(رسالة الضبعين) الى معز الدولة ثمال بن صالح أمير حلب ،
يشكو اليه فيها رجلين حرفا بعض شعره في (اللزوم) قصدا
الى اهلاكه ، ويسأله أن يرجع فيه الى نسخ من الديوان في حلب ،
مكتوبة بخطوط ثقات من كتابه أمناء أتقياء :

« وفي حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم
ثقات يعرفون ببني هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بجبل الورع
متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمله . وان أحضرت
— النسخ — ظهرت الحجة بما قلت فيه . »

كما أحوجوه الى أن يدافع عن نفسه بقوله ، يرد على القاضى
المنازى حين سأله فيما ينسب اليه من أقاويل :
« حسدنى قوم فكذبوا على . »

وكذلك استجاب ٥ على كره ٥ لالاح أصدقائه ٥ فأملى كتابه (زجر النابج) شرحا لما أسىء تأويله من شعره في (لزوم ما لا يلزم) وأبطل فيه — كما يقول ابن العديم — طعن المزرى عليه والقادح ٥ وبين فيه عذره الصحيح وإيمانه الصريح ٥ ووجه كلامه الفصيح » ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بـ (نجر الزجر) بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ٥ فلم يمنعهم زجره ٥ ولا اتضح لهم عذره .

* * *

وشاعت كلمة السوء فيه ٥ ومن شأنها أن تشيع ٥ فجرح ببعض ما قال مما قد يوهم ويشكل ٥ وبغيره مما لم يقل ٥ مع أن أكثر مصنفاته في الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه . و (ديوان اللزوم) نفسه ٥ ملئ بأنفاس إيمانه الصادق وأناشيد ضارعه للخالق .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب بصحة العقيدة وصدق الايمان ٥ وفيهم من كان قد استراب في أمره تأثرا بشائعات السوء ٥ ثم بان له من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين . نقل « السلفى » بإسناد الى القاضى أبى المذهب عبد المنعم السروجى قال : « سمعت أخى القاضى أبا الفتح يقول : دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة ٥ بغير علم منه . وكنت أتردد اليه وأقرأ عليه ٥ فسمعتة وهو ينشد من قبله — والأبيات من ملقى السبيل — :
كم بودرت غداة كعاب وعثمرت أمثها العجوز

أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطئ المنيايا والخلد في الدهر لا يجوز
ثم تأوه مرات ، وتلا قوله تعالى : (ان في ذلك لآية لمن خاف
عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .
وما تؤخره الا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس الا بأذنه
فمنهم شقى وسعيد) ثم صاح وبكى بكاء شديداً ، وطرح وجهه
على الأرض زماتا . ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من
تكلم بهذا في القدم . سبحان من هذا كلامه . فصبرت ساعة ثم
سلمت عليه فردّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت :
أرى يا سيدنا في وجهك أثر غيظ . فقال : لا يا أبا الفتح ،
بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ،
فلحقني ما ترى ! فتحققت صحة دينه وقوة يقينه » .

فهل تنهم الخبر ؟

لا علينا أن نفعل ، وأبو العلاء معنا ، دليل رحلة ، يقول في
(رسالة الغفران) التي أملاها في صميم عزلته :

« وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا
الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه ، كتاب بهر بالاعجاز ..
ما حذى على مثال ولا أشبه غريب الأمثال . ما هو من القصيد
الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب
ولا سجع الكهّان ذوى الأرب . وجاء كالشمس اللائحة ، نورا
للمسرة والبائحة . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع .. (وتلك
الأمثال نضربها للناس لعلمهم يتفكرون) وان الآية منه أو بعض

الآية ، لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون « فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وكانت بلبله !

اضطرب الناس في أمره : بين ما يعلمون من صلابته في الزهد والورع ، ويسمعون من أماليه وأشعاره في التوحيد والعظات « وشهادة من شهدوا له بصحة العقيدة وقوة اليقين .

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل الله من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ، ويسمعون من قدح فيه وتجريح ..

أو كما قال داعي الدعاة في رسالته الثالثة الى أبي العلاء :
« .. فلما رمت بى المرامى الى الشام ، سمعت أن الشيخ — وفقه الله — بفضل في الأدب والعلم ، قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا . وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره « فقال الحاضرون فيه غثا وسميئا .. » .

وبعض هذه البلبله ، يكفى لصد عامة الجماهير عن أبي العلاء ، والحيلولة بينه وبينهم ..
وهو ساهر في دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس «
والصبح ناء بعيد :

طالت على ساهر دجته والصبح ناء ، فمن لنا بغلس :

الفصل الخامس

نهاية المطاف تراث وآثار

- ضجعة القبر
- في منطقة الظل
- انحسار الظلام

ضجعة الفبر

هذا جناح أبى علىّ وما جنيت على أحد
(وصيته على قبره)

صمد للتجربة حتى آخر العمر .
على قسوة ما كابد من أشواق بشرية ، وما لقي من افتراء
منسوبة وعنت مجادليه .

ولقد طال به العمر وناء بأثقال الشيخوخة : سقطت أسنانه ،
« انحنى ظهره » ، ووهن جسده وتخاذلت أعضاؤه ، فصار لا يستطيع
سوى الأيسوعة سواء .

« نصغى إليه » دليل رحلة ، اذ يقول وهو فى الخامسة
والثمانين من عمره ، من رسالة الى داعي الدعاة :

« قضى علىّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والرابع .
« لو أت محنى فأشبهه شخصى العود المنحنى . ومثيت فى آخر
مسيرى بالاقعاد وعدانى عن النهضة — أى النهوض — عاد ...

« ولو مثل بحضرته السامية » لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن
الزمان لا أن يجيب . لأن أعضائه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام
فى الصلاة فانما يصلى قاعدا والله المستعان ..

« وانى لأعجز اذا اضطجعت عن القعود ، فربما استغنت

بأنسان ، فإذا هم باعأتى وبسط يديه لنهضتى ، ضربت عظامى
لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » .

وكذلك ضعف سمعه الى جانب ما كان من عجزه عن البصر
وعن النهضة والقيام . فيقول فى قصيدته التى نظمها فى ابن أخيه
القاضى عبد الله ، شاكرا له بره واخلاصه فى رعايته وتعهده :

حمدتك فى الحياة أتم حمد

وأيامى ذممت أتم ذم

أجدك ما تركت وأنت قاض

تعهد مقعد أعمى أصم

والقصيدة قلت بعد أن جاوز أبو العلاء الثمافين من عمره ٥
بشاهد من نصها : « وأنت قاض » وولاية أبى محمد عبد الله
ابن أبى المجد لقضاء المعرة ، كانت فى سنة ٤٤٣ هـ كما نص
على ذلك « ابن العديم » مؤرخ حلب ، وآل سليمان .

* * *

وبقى له على وهن الشيخوخة وتخاذل الأعضاء ، صفاء
ذهنه وتوقد قريحته ، وقوة حافظته وضبطه ، وطاقته العجيبة
على الدرس ، فظل تلاميذه يقرأون عليه ويكتبون له ويأخذون
عنه ، الى قبيل وفاته : فبعد الثمافين من عمره ، كان « الخطيب
التبريزى » يقرأ عليه كتاب (غريب الحديث لأبى عبيد) وعنه
حكى وصنف (تهذيب غريب الحديث) — فيما قرأ ابن العديم
بخط التبريزى :

« قال الخطيب التبريزي : وكنت قرأت هذا الكتاب ه سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، على أبي العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان التنوخي المعري . قال : قرأ علينا سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، كتاب غريب الحديث ؛ القاضي أبو عمرو عثمان ابن عبد الله الكرجي ه وذكر أنه سمعه من أبي عمير عدي ابن عبد الباقي ، وسمعه أبو عمير من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد » .

هكذا حفظ المتن ، ووعى الاسناد ه منذ قرئ عليه الكتاب ، قبل ستين عاما !

وفي الخامسة والثمانين من عمره ، أملى اجازته لأحد طلابه ، في رواية الجزء الثاني من مصنفه (ذكرى حبيب) ونص الاجازة :

« قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، من أهل معرة النعمان : قرأ علىّ هذا الجزء ه وهو الجزء الثاني من الكتاب المعروف بذكرى حبيب ه الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي أدام الله عزه ه من أول الجزء الى آخره ، ووقع الاجتهاد مني في تصحيح النسخة . وكان ابتداءه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ه وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ه وأجزت له أن يرويه عنى على حسب ما قرأه . ويشهد الله أنى معتذر الى هذا القاريء — يعنى أبا الحسن — من تقصيري فيما هو علىّ مفترض من حقوقه . والاعتراف

بالمعجزة ، يمنع من اللائمة المنجزة — وكتب (الاجازة) جابر
ابن زيد بن عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان ، باذن أحمد
ابن عبد الله بن سليمان المعري ، في المحرم سنة ثمان وأربعين
وأربعمائة » .

وكذلك بقيت له قوة نفسه وصلابة زهده وبسالة مجاهدته :
كان يملئ رسائله الى داعي الدعاة وهو رازح تحت ثقل الشيخوخة
الواهنة ، وقد احتمل ما ألح عليه به الداعي من عنف الجدل
ومكر الخصومة ، وصمد لوطاة مناورته ومحاورته ، دون أن
يرجع عن قراره في الامتناع عن أكل اللحم وتعذيب الحيوان ،
ولو كان في ذلك مدعاة للطعن في عقيدته ، بل أصر — كما سمعت
من قوله — على أن يلقي الله سبحانه ، وهو لا يطالب الا بهذا
الذي عدوه منه اثما ومعصية !

ومرض فلم يقبل أن يذوق لحم فروج وصفه له الطبيب
علاجاً . وظل منذ بلغ ثلاثين عاماً ، صائماً الدهر ، « فلم يفطر في
السنة ولا الشهر الا العيدين ، وصبر على توالى الجديدين » لمضى
بحر نصف قرن .

* * *

ثم كان لذلك الليل الطويل آخر .

اعتل في أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ . وعاده الطبيب
للشهور « ابن بطلان : أبو الحسن المختار » وكان ممن يتردد
عليه للزيارة والسماع ، أثناء مقامه بديار الشام ، ولعل ابن بطلان
هو الذي وصف له كأساً من شراب ، « أتاه به القاضي الأجل

أبو محمد عبد الله ابن أخيه — فامتنع من شربه . فحلف القاضي
أياماً مؤكدة لا بد من أن يشرب ذلك القدح ، فاعتذر وهو يشد :
« عبد الله ، خير من حياتي وطول ذمائها ، موت مريح
تعللني لتسقينني فذرني لعلى أستريح وتستريح »
وأحاط به خاصة أهله من بنى اخوته وبنى عمه ، ومر عليه
يوم وثان والعلة لا تفارقه ، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها
علة الموت !

وكان قد سألهم أن يكتبوا عنه ، فتناولوا الدوى والأقلام ،
فأملى عليهم غير الصواب ؛ فنظر بعضهم الى بعض وكأنهم
يتساءلون عما به ، فما عهدوا عليه اختلالاً في المنطق أو سهوا
عما يملى .

عندئذ ألقى القاضي « أبو محمد » القلم من يده ، وأمسك
دمعه وهو يهمس لمن حوله من الأهل : أحسن الله عزاءكم في
الشيخ ، فإنه ميت ..
ومات في غداة غده !

تاركا وصيته ، أن يكتبوا على قبره :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

ومسجلا بها في لحظة النهاية ، مأساة حياته ، وموقفه منها .

وشيعوه الى مثواه الأخير ، حيث أضجعوه في لحده .
وعلى قبره وقف أربعة وثمانون شاعرا يرثونه ، وهو مغيب
تحت الثرى ، لا يسمع صوت مفجوع فيه ، ولا يجيب نداء

محزون عليه ، ولا يملك أن يرد هذا الجمع الحاشد ، الى شيء
من التجلد والعزاء .

كان قريبا منهم أدنى القرب ، بعيدا أقصى البعد ، وتلميذه
أبو الحسن على بن همام يناديه معاتبا :
ان كنت لم ترق الدماء زهادة

فلقد أرقت اليوم من جفنى دما
وأبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعرى ، يهتف
به فى حسرة رائيا :

سمر الرماح ويبيض الهند تشتور
فى أخذ ثأرك والأقدار تعتذر

والدهر فاقد أهل العلم قاطبة
كأنهم بك فى ذا القبر قد قبروا
فهل ترى بك دار العلم عالمة

أن قد تززع منها الركن والحجر
العلم بعدك غمد فات منصله

والفهم بعدك قوس ما لها وتر
والأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى ه
يبكيه ويكى العلم والنهى والعفة والتقوى والمكارم أجمع :

العلم بعد أبى العلاء مضيع
والأرض خالية الجوانب بلقع
ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرى
أن الثرى فيه الكواكب تودع

جبل ظننت ، وقد تزعزع ركنه
 أن الجبال الراسيات تزعزع
 وعجبت أن تسع المعصرة قبره
 ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
 لو فاضت المهجيات يوم وفاته
 ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
 تتصرم الدنيا ويأتى بعده
 أمم ، وأنت بمثله لا تسمع
 رفض الحياة ومات قبل مماته
 متطوعا بأبر ما يتطوع
 عين تسهد للعفاف وللتقى
 أبدا ، وقلب للمهيم يخشع
 جادت ثراك أبا العلاء غمامة
 كندى يديك ، ومزنة لا تقلع
 ما ضيع الباكي عليك دموعه
 ان الدموع على سواك تضيع
 قصدتك طلاب العلوم ولا أرى
 للعلم بابا بعد بابك تفرع
 مات النهى وتعطلت أسبابه
 وقضى التأدب والمكارم أجمع
 ولدى سبعة أيام ، أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن ،
 حتى أتموا مائة ختمة ..

ثم انقض المآثم ..
واستراح المتعب ، ونام بعد طول أرق وسهاد .
ورجع الصدى يردد في وحشة المقابر :
لعمري ما آسى اذا ما تحمّلت
عن الجسم روح كان يدعى لها ربعا
وما أسأل الأحياء بعدى زيارة
ثلاثا لا يناس الدفين ولا سبعا

في منطق الظل

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى أخاف عليكم أن تلتقوا
(اللزوميات)

* رفض الحياة ومات قبل مماته * كما قال رائيه ..

لكنه فرض نفسه على الحياة كما لم يفرضها أديب عربى
سواه ، وخاض معركته من وراء قبره ، ضد ضلال المقاييس
واختلال القيم ..

ومضى مقطوع النسل مجتث الفرع كما قال عن نفسه ..
لكنه ترك تراثه فعاش به كما لم يعيش ذوو الكثرة والعدد
من البنين والأحفاد ..

وقد تعرض تراثه لعوادى الزمن ومحنة الاضطهاد ، فلم يجد
« الققطى » منه — بعد قرن وبعض قرن — الا « خمسة وخمسين
مصنفا » العدد بتقريب ، سوى ما لم يذكره : أربعة آلاف ومائة
وعشرون كراسة .

وقال : « وأكثر كتب أبى العلاء هذه قد عدمت ، وانما يوجد
منها ما خرج عن المعرفة قبل هجوم الكفار عليها وقتل أهلها ونهب
ما وجد لهم » فأما الكتب الكبار التى لم تخرج عن المعرفة فعدمت ،
وان وجد منها شيء فانما يوجد البعض من كل كتاب .

وجاء « ياقوت » بعد القفطى ، فعدّ من مصنفات أبى العلاء اثنين وسبعين مصنفا ، ذكرها بأسمائها ، مع تعريف موجز ببعضها . ولم تصل إلينا هذه البقية مما رأى القفطى وأحصى ياقوت ، وإنما تاه أكثرها فى غيابة الزمن ، وترك الباقي مدفونا فى خزائن الكتب لمدى قرون ، لم يهتم أحد بنشره ، ولا عنى به الشراح والدارسون ممن عاشوا فى الأقطار العربية على ذلك المدى المتطاوّل .

شغلهم عنه الكلام فى عقيدته ، وترديد ما تناقل اليهم من أقوال سابقهم فيها .

واختلفوا فيه كما اختلف من قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه تحرجا ، أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال فى تمجيد الله ، وما ألف من مصنفات فى المواعظ ، ولما شاع وذاع من ورعه وزهده ، فاكثفوا بنقل أقوال من جرحوه ، وقللوا معها أقوال من شهدوا له بصدق الايمان وقوة اليقين ، ثم عقبوا على هذه وتلك بالكلمة المشهورة : « والله أعلم » .

وقذفه بعضهم بالزندقة والالحاد وسقم الدين ، وقرنوه مع « أبى حيان التوحيدى » و « ابن الراوندى » — من أشهر الزنادقة فى الاسلام — فى قرن واحد ، وتقربوا الى الله بلعنته ، وحكموا عليه بالخسران فى الدنيا وعذاب الجحيم فى الآخرة . يتوارثون ذلك خلفا عن سلف ، ويتناقلونه تقليدا ، جيلا فى اثر جيل .

حتى رؤيا المنام ساقوها في اتهامه ، وتتابع الاخباريون منهم
يوردونها ناقلين ، في معرض الكلام « عما تذاكر به متهموه من
الحاده » :

ففى القرن السادس ، نقل « ابن الجوزى » عن ابن الصابى
أنه قال : « ولما مات المعرى رأى بعض الناس فى منامه كأن أفعين
على عاتقى رجل ضير ، قد تدليا الى صدره ثم رفعوا رأسيهما
فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث . فقال : من هذا ؟ فقيل :
المعرى الملحد ! » .

وحكاها من بعد « ابن الجوزى » سبعة من مؤرخى
أبى العلاء ، من القفطى فى القرن السابع ، الى أبى الفتح
العباسى فى القرن العاشر !
وظلموه ميتا كما ظلموه حيا .

تقولوا عليه بشعر لم يرد فى ديوانيه ، وقد تم تدوينهما فى
حياته ، وكتبهما عنه مباشرة كتاب له أمناء ثقات : فسقط الزند
— ديوان شعره الأول — قرئ عليه ببغداد ، وديوان اللزوم ،
وجدت منه فى حياة أبى العلاء نسخ موثقة ، أشار اليها بقوله
فى رسالة الضبعين :

« وفى حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب بخطوط
قوم ثقات يعرفون بنى أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل
الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه » .
وقد أملى فيما أملى من مصنفاته ، (ضوء السقط) شرحا
لديوان سقط الزند ، و (الراحة ، وراحة اللزوم) وزجر

الناجح ، ونجر الزجر) شرحا لديوان اللزوم ، وتحريرا لفهم ما أسىء تأويله منه .

وأكثر هذا الذى نسبوه اليه — مما لم يرو فى ديوانيه — لا يثبت على الفحص النقدى . ومنه ما هو منسوب الى غيره كالبيتين :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل

وترزق مجنوننا ، وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء على امرئ

رأى منك ما لا يشتهى فترندقا

رواهما ابن الجوزى فى (المنتظم) بين الأشعار المنسوبة اليه ، الدالة على كفره ، ونقلهما من بعده القفطى ، وياقوت ، وسبط ابن الجوزى وابن كثير ، والعينى — وهؤلاء الثلاثة صرحوا بالنقل عن ابن الجوزى — ثم ابن السبكى فى (طبقات الشافعية) .

والبيتان مما لم يرو فى ديوانه .

وهما منسوبان فى (معاهد التنصيص) للعباسى — ص ٧١ ط بولاق سنة ١٢٧٤ — لابن الراوندى ، وهما به أشبه ، وله فى هذا المعنى ، بيتان آخران رواهما أبو العلاء فى (رسالة الغفران) بين أشعار الزنادقة (١) .

(١) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء — ص ٤٩٥ ط

وأملى معهما ما نصه :

« ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين . فيقال ان رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك :

يسول أبو حفص علينا بدره

رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب

كأنك لم تتبع حمولة ماقط

لتشبع ، ان الزاد شيء محجب

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتم

علينا ، ولكن دولة ثم تذهب

ونحن سبقناكم الى المين فاعرفوا

لنا رتبة البادى الذى هو أكذب

مشيتم على آثارنا فى طريقا

وبغيتكم فى أن تسودوا وتكسبوا

تقلها « ياقوت » فى معجمه ، ثم عقب عليها بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعره ، نحله هذا اليهودى . أو أن

يراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ! » .

وجاء مصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) فوضعوا

أمام هذه الأبيات فى فهرس القوافى ، اسم أبى العلاء ، وكأن

ما شبهه لياقوت وساقه على سبيل الظن والشك ، قد صار ثابتا

* * *

وكذلك راب متهميه « ما في (رسالة الغفران) من أخبار
عن الزنادقة ومرويات من أشعارهم ، كأنه كان يستلذ بها !
وذهب بعضهم في تأويل أقواله الى مدى بعيد من ظلم
الاعتساف وشطط الملحظ ، كمثل ما فعل « الزمخشري » في
(الكشف) في تفسير قوله تعالى : (انها ترمى بشرر كالصقر .
كأنه جمالات صفر) .

نقل فيه بيت أبي الغلاء في سقط الزند :
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى

ترمى بكل شـرارة كطراف

ثم قال ما فسه :

« شبهها بالطراف ، وهو بيت الأدم ، في العظم والحمرة ،
وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولتبجّحه بما
سول له من توهم الزيادة ، جاء في صدر بيته بقوله : حمراء .
توطئة لها ومناداة للسامعين على مكانها . ولقد عمى — جمع الله
له عمى الدارين — عن قوله عز وجل : كأنه جمالات صفر . فانه
بمنزلة قوله : كبيت أحمر . وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو
الحصن ، تشبيها له من جهتين ، من جهة العظم ومن جهة الطول
في الهواء . وفي التشبيه بالجمالات — الجبال الضخمة —
تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة . فأبعد
الله اغرابه في طرافه ، وما نفخ به شذقيه من استطرافه » .
فهل مثل هذا التأويل المشتط ، مما يخطر على بال قارئ
منصف ، تحرر من سيطرة فكرة سبقت اليه بالالاتهام ؟

وأبو العلاء هو الذى قال عن « القرآن الكريم » ما نقلنا
اليك نصه ، من رسالة الغفران « عند الحديث عن خصومة العصر
لأبى العلاء — ص ٢١٨ .

* * *

« وتحدثت الألسن بإساءته » لكتابه الذى زعموا أنه عارض
به القرآن ، وعنوانه : الفصول والغايات ، محاذاة للسور
والآيات .

وعبارة « محاذاة للسور والآيات » التى ذكرت أول
ما ذكرت « وصفا للكتاب من بعض القدامى ، لم تلبث أن
زحزحت عن موضعها من اللاحاق الوصفى ، واقتربت باسم
الكتاب حتى صارت شطر عنوانه « على ما نقل الذهبى فى تاريخ
الاسلام : « الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » .

وربما جاءوا بفقرات منها ، وصدروها بقولهم :
« ومما ظهر من قرآن أبى العلاء » كما فى (الصبح النبى)
للبيدى .

وفى الأفق رجع صدى من صوت يقول :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى أخاف عليكم أن تلتقوا

فيهز الضمائر الحية لبعض مؤرخيه « ويكشف عن بصيرتهم
غطاء ألقته عليها أقاويل الزور وشائعات الافتراء .

منهم « القفطى » الذى ألح عليه النداء فى اليقظة والمنام «
فكتب فى (انباه الرواة) :

« كنت في سن الصبا ، وذلك في حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة » أقدم في اعتقاد أبي العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره وما ينشد له في محافل الطلب . فرأيت ليلة في النوم كأنني قد حصلت في مسجد كبير ، في شرقيه صفة كبيرة ، وفي الصفة سل الحصر مفروش من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف متوسط البياض .. وهو مستقبل القبلة في جلسته ، وإلى جانبه طفل ، وكأنني فهمت أنه قائده . وكأنني واقف أسفل الصفة ومعى ناس قليل ونحن ننظر إليه وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئا . ثم قال في أثناء كلامه مخاطبا لى : ما الذى يحملك على الوقعة في دينى ؟ وما يدريك لعل الله غفر لى ؟ فخجلت من قوله وسألت عنه من الى جانبى ، فقال لى أحدهم : هذا أبو العلاء المعرى .. فابتسمت متعجبا للرؤيا ، واستغفرت الله لى وله ، ولم أعد الى الكلام فى حقه الا بخير .

ومنهم « ابن العديم » الذى استقصى أخباره وآثاره ، وهو لا يبنى الا أن يجمع مادته لتأريخ أعلام حلب الى عصره ، فهاله ما لحق أبا العلاء من ظلم فادح ، وما شاع عنه من افتراء باطل شوه صورته بغير حق . وأرقه التفكير فيما تفرضه أمانة التأريخ على مثله ، من تصحيح الزيف الشائع والوهم المسيطر ، حتى ندب نفسه للمهمة الصعبة ، فتفرغ لاستقراء كل المرويات عن أبى العلاء ولقى كل الباقيين من أسرته وأهل بيته ، واستقصى روايات من لقوه وصحبوه وتلمذوا له أو قرأوا عليه وكتبوا له ، يأخذها

باسناد متصل من رجال عصره الى عصر أبي العلاء ، وبينهما نحو قرن ونصف قرن . ثم ألف (كتاب الانصاف والتعري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) وقدم له فقال بعد حمد الله الكريم العادل محق الحق ومبطل الباطل ، على ما منحه من التوفيق وهده به الى سواء الطريق :

« وبعد فاني وقفت على جملة من مصنفات عالم معرفة النعمان أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان ، مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب . لا يجد الطامح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة . ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل الانصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه اذ لم ينالوا سعيه ، فقتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ووجدوها خالية من الزيف والفساد . فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين ، ورموه بالالحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء السبيل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملحدة ، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده ، فجعلوا محاسنه عيوباً وحسناته ذنوباً وعقله حمقاً وزهده فسقاً ، ورشقوه باليأس السهام وأخرجوه عن الدين والاسلام ، وحرفوا كلمه عن مواضعه وأوقعوه في غير مواقعه . »

والتفت « ابن العديم » الى محنة أهل الفضل بالعصر :
« يطالبهم بتراته ويقصدهم باسأته ويسلط عليهم من أبناءه

أعداء . قصدوا أبا العلاء بالظعن والاساءة ، واللبيب مقصود
والأديب عن بلوغ الغرض مصدود ، وكل ذى نعمة محسود .
كما التفت الى أن كتاب الله العزيز الذى لا يتقبل التبديل
ولا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تأوله جماعة من
أرباب باطل الأقاويل ، على غير وجوه التأويل ؛ حتى ان جماعة
من الكفار تمسكوا منه بآيات جعلوها دليلا على ما ذهبوا اليه
من الضلالات « فما ظنك بكلام رجل من البشر ليس بمعصوم
ان زل أو عثر ، وقد تعمق فى فصيح الكلام وأتى بما لا يتيسر
لغيره ولا يرام .. اذا قصده بعض الحساد فحمل كلامه على غير
المراد .

« وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بزجر النابح ، أبطل فيه
ظعن المزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وإيمانه
الصريح ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بنجر
الزجر ، بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم
زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره واجترأوا
على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ، وقعدوا فى
أمره وقاموا .. حتى حكوا كفره بالأسانيد .. وكفره من جاء
بعدهم بالتقليد .

« فابتدرت دونه مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا .. وذكرت
فى هذا الكتاب مولده ونسبه ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه
ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ،
وطعن القادح فيه وردة ، ودفع الظلم عنه وصده . »

ومنهم أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (٦٧٣ : ٧٤٨ هـ)
الذى قال بعد أن نقل ما وصل اليه من أقوال الذين اتهموا
أبا العلاء ، والذين شهدوا له بالتقى والايمان :

« وفي الجملة » فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر
والمعرفة بالنسب وأيام العرب .. وله في التوحيد واثبات النبوة
وما يحض على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروءة ، شعر كثير .
والمشكل منه فله — على زعمه — تفسير » .

ومنهم ابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) الذى قال فى كتاب (تنمية
المختصر فى أخبار البشر) . بعد أن نقل مريثة تلميذه ابن همام :
« وقول تلميذه : * لم ترق الدماء زهادة * يدفع قول من قال
انه لم يرق الدماء فلسفة » ونسبه الى رأى الحكماء . وتلميذه
أعرف به ممن هو غريب يرجمه بالغيب . وماذا على من ترك اللحم
— وهو من أعظم الشهوات — خمسا وأربعين سنة زهادة ؟ !
وقد قال المكي فى قوت القلوب : اباحة حلال الدنيا حسن ،
والزهد فيه أحسن . ولما أتى رسول الله أهل قباء بشربة من لبن
مشوبة بعسل ، وضع القدح من يده وقال أما انى لست أحرمه »
ولكنى أتركه تواضعا لله تعالى . وأتى عمر بن الخطاب رضى الله
عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اغزلوا عنى
حسابها . وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التمتع ، وكتب
الرقائق وغيرها مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ
الغانية ، رغبة فى النعيم الباقي » .

ثم نقل « ابن الوردي » مريثة الأمير أبي الفتح المعري
لأبي العلاء « وعقب عليها بقوله :

« فانظر الى ما رثاه أيضا به هذا الرجل ، ووصفه به من
تقاه ورفضه للحياة وموته قبل الموت وتطوعه « وهو أيضا أعلم
به من الأجانب . وبالجملّة فقد ألّف الصاحب كمال الدين
ابن العديم ، رحمه الله « في مناقبه كتابا سماه : كتاب العدل
والتحرى في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ، وقال
فيه : انه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه « فوجد كل من ذمّه
لم يره ولا صحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح له . وهذا
دليل لما قلته .

« وصنف بعض الأعلام في مناقبه كتابا وسماه : دفع المعرة
عن شيخ المعرة . وفي هذين الكتابين فصول من نواذر ذكائه
واجابة دعائه « والاعتذار عن طعن أعدائه » .

وكذلك غضب ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ)
لأبي العلاء . فيما لحقه من ظلم عن غير حق ، فقال في (مسالك
الأبصار) :

« رفض الدنيا وما سلم .. وتداوى باليأس من مطامعها
ودارى الناس بترك حظه لهم « ومع هذا ظلم . نفض يديه من
الدنيا وساكنها « وخفض لديه قدر محاسنها .. وأخذ نفسه
بالقناعة حتى صارت جنة تقيه المطامع ، ومنة تقويه على مغالبة
الأمل الطامع ..

« وكان مطلعا على العلوم .. متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ؛ ندرة في العالم وشذرة في بني آدم ، ما ولدت مثله الليالي ولا أوجدت شبيهه المعالي .

« وله من بدائع النظم والنثر قمارها ، ومن روائع العلم والعمل سمرها .. هذا على انقطاع حتى عن نفسه ، وامتناع حتى عن أنسه ، ونفار حتى من ظله .. مع ما منى به من فقد حاسة بصره .. وخلوه ممن يماثله في بلده .

« والناس فيه بين مكفر ومعتقد له الولاية ، وما بين بين هذه الغاية » .

ثم نقل « العمري » ما كتبه ابن العديم مقدمة لكتابه الانصاف والتحرى .

* * *

وظل مع ذلك مظلوما ..

ومضت قرون ذات عدد ، والتهمة تلقى ظلها على أبى العلاء فتحجبه عن أجيال من أبناء العربية ، في عصور لم تكن تحتل أن تخلى بينهم وبين هذا الأديب الفرد ، يهز وجدانهم بحر كلمته ، وينفذ الى قلوبهم وضمايرهم بشرف سلوكه وبطولة احتماله ، بسالة مقاومته للبغى والطغيان ، وحملته على الفساد والنفاق ...

ومن عجب أن تلك العصور التي رجمت أبا العلاء بتهمة الزندقة والالحاد ، رثت فيها الدين وعاد الاسلام غريبا في ديار الاسلام ، وفقد حرمة في صراع المذاهب ومعتزك الأهواء .

فقيم كانت هذه الحمية للدين ، تنكر على أبى العلاء ما حرم
على نفسه من طيبات الرزق الحلال ، ولا تنكر إباحة الحرمات
واتهاك المقدسات ؟ . ترى فى امتناعه عن أكل اللحم وشرب اللبن
اثما ، وتستظرف مجالس الشراب ومحافل اللهو والمجون ،
ولا ترى اثما فى أكل حقوق الناس وشرب دمائهم !

فيم الغضب للإسلام ، يأخذ أبا العلاء بكلمات جرى بها
لسانه تخفيفا عن كربه واحتجاجا على اختلال الأوضاع وفساد
القيم وتفاق محترفى الدين ، ولا تأخذ آخرين بادعاء النبوة
واعتناق المشنوية والجهر بالحلول والتناسخ والرجعة ، كأن لم يكن
فى الدنيا غير أبى العلاء عدوا للدين وخصما للمسلمين ! ..

وأعجب من هذا ، عزوف الشراح والدارسين عن أدب
أبى العلاء اشتغالا بعقيدته ، وهم الذين شغلوا بديوان
أبى الطيب ، وأقاموا لصاحبه عرشا جثوا من حوله سجدا ، جيلا
بعد جيل .

وأبو الطيب قد ادعى النبوة فيما قالوا وآكدوا ، على حين
كان الناس فى أمر أبى العلاء ، بين متهم ومعتقد له الولاية كما
قال « العمرى » . وما زاد متهموه على أن قالوا انه حرم على
نفسه الرزق الحلال ، ونطق بشعر موهم ، فى النبوة والأنبياء ،
وصرح فى بعض شعره بحيرته وشكه فيما وراء الموت .

ولم يقل أحد قط انه ادعى النبوة .. ولا استطاعوا أن يأخذوه
قط ، بكلمة شرك . ولا أخذوا عليه مأخذا فى ورعه وصلابته

زهده وعفة ضميره ويده ، بل انه وجد من ينفى عنه كل تهمة ؛
ويشهد بصدق اعتقاده وقوة يقينه .

وتغاضوا عن شعره في تمجيد الله والاقرار بوحدانيته ، وعن
مصنفات له في الزهد والمواعظ !

ولا تفسير لهذا عندي ، الا أن أبا العلاء كان نمطا فريدا
لا عهد لتلك العصور بمثله ، ومن ثم بقى فيها غريبا لأنه ليس
من أهلها ، وصدقت فيه كلمته :
أولو الفضل في أوطانهم غرباء

تشذ وتنأى عنهم القرباء

لقد رفض حياتهم ، فحاولوا أن يرفضوه !

« وقعدوا في أمر عقيدته وقاموا ، وحكوا كفره بالأسانيد ،
وكفره من جاء بعدهم بالتقليد » كما قال ابن العديم ..
تشويها لصورة الأديب الحر المناضل .. استغلوا فيه العاطفة
الدينية للجماهير ، كى تظل بمعزل عنه !

وزادوه تشويها ، فقالوا انه عدو المجتمع ، وما كان عدوا
الا لأعداء المجتمع ، ونسوا أنه القائل :

ولو أنى حببت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا
وقالوا : متشائم ، يئد الطموح في نفوس الشبان ؛ ونسوا
أقواله في تمجيد العمل ، ونسوا أنهم ما فتنوا يروجون زهديات
لأبى العتاهية ، نظمها وهو غارق الى أذنيه في الترف بقصر
الرشيذ !

وقالوا فى أدبه : انه جمع الى السواد الغموض والتعقيد ،
وقد حجبوا تراثه فلم ينشروه ، وانهم ليعلمون أنه تولى بنفسه
شرح ديوانيه السقط واللزوم ، وفسر غريب الألفاظ فى الغفران
والفصول والغايات ، وأتبع كل لغز له فى كتاب الألفاظ الذى نظمها
فنا بديعيا ، بحل مفسر للتغز .

وجحدوه أدبيا بدعوى أنه فيلسوف .

وجحدوه فيلسوفا بدعوى أنه أديب .

وصوته يأتى من وراء القبور :

* أولو الفضل فى أوطانهم غرباء *

انحسار الظلم

هوّن عليك ولا تبال بحادث يشجيك ، فالأيام سائرة بنا
(اللزومات)

حُجب أبو العلاء عن أبناء العربية ، في عصور رأت فيه خطرا
على وجدان المجتمع ، بسلوكه الشريف وأدبه الحر ..
ومع انحسار ظلمات الطغيان والطبقية والرجعية ، بدأ نور
الوعي يكشف عن بصيرتنا الغطاء .

وسمعا أن المستشرقين شغلوا بأبي العلاء واحتفلوا بترائه ،
فنشر المستشرق الانجليزي « نيكلسون » تعريفا برسالة الغفران
وفقرات من نصها ، في المجلة الآسيوية الملكية في أعوام ١٨٩٩ :
١٩٠٢ . ونشر المستشرق الاسباني « ميجويل أسين بلاسيوس »
عام ١٩١٧ دراسته للأصول الاسلامية في الكوميديا الالهية
لدانتى ؛ وفيها فصل كامل عن تأثر دانتى بأبي العلاء في الغفران .
ونشر « مرجليوث » الانجليزي مجموعة (رسائل أبي العلاء)
ونشر « كراتشكوفسكى » عميد المستشرقين الروس ، مقدمة
(رسالة الملائكة) وتابعت بعد ذلك بحوثهم ودراساتهم ، لأدينا
المغمور فينا ، فلفقتنا اليه بعد طول غفلة واهمال .

وكان للأستاذ الدكتور طه حسين الفضل الأول في إحياء (ذكرى أبي العلاء) فينا، ونقله إلى بيئة الدراسات الجامعية . وكانت هذه الذكرى ، موضوع رسالته التي نال بها من جامعتنا درجة الدكتوراه ، سنة ١٩٢٥ . ووضع بعدها كتابيه : رهين الحبسين ، ومع أبي العلاء في سجنه .

ودعا إلى نشر تراثه فينا ، وكان هو الذي اقترح أن تكون هدية مصر إلى أبي العلاء في مهرجان الذكرى الألفية لمولده — دمشق ١٩٤٤ — ذلك السفر القيم الذي جمع نصوص (تعريف القدماء بأبي العلاء) . وبإشرافه كذلك ، نشرت شروح سقط الزند في طبعة جديدة منقنة .

ثم تابعت الجهود في الميدان : نشرت القاهرة عام ١٩٣٨ طبعة محققة للقسم الأول من (الفصول والغايات ، تحقيق الأستاذ زياتي) لنصفي فيها إلى نبض ضراعة وإبتهال ، ومواعظ تمجيد وقنوت ، وتأملات أديب يتداوى من محنة الحياة باليأس منها . وهي التي زعموا أنها معارضة للقرآن ، وحرفوا عنوانها فجعلوه « الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » .

وفي عام ١٩٥٠ ، نشرت القاهرة النص المحقق لرسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ، وأرفقتها في طبعتها الثانية والثالثة بنص محقق لرسالة ابن القارح ، آضاء لنا فهم ما راب

الذين قبلنا ، من اراد أبى العلاء لأخبار الزنادقة ومرويات من أشعارهم ؛ وما كان أبو العلاء فيما جاء به من ذلك متطوعا مستلزما كما زعموا ، وانما هو رده على ما فى رسالة ابن القارخ من أخبارهم وأشعارهم ، وقالوا : « فى رسالة الغفران مزدكة واستخفاف » ورأينا فيها أثرا فنيا فريدا كاشفا عن نفسية أبى العلاء فى مجاهدته النفسية ، واستخفافا بالنفاق وسخرية بالمنافق ! ونشرت دمشق (رسالة الملائكة) التى حققها الأستاذ محمد سليم الجندى ، بعد أن نشر « كراتشكوفسكى » مقدماتها ، فأضافت جديدا الى ما لدينا من علم أبى العلاء وفنه الأدبى .

كما نشرت له آثار أخرى ، لم تستكمل حفظها من التحقيق المنهجى مثل ديوان اللزوميات ، وعبث الوليد ، وملقى السبيل . وهى تخدم فى الميدان الى أن يتاح لنا الظفر بنصوص محققة لها .

وتلقت المكتبة العربية المعاصرة ، عددا غير قليل من الدراسات العلائية ، أذكر منها :

أبو العلاء وما اليه :	العزیز الميمنی	الهند
المهرجان الألفى لأبى العلاء :	بحوث ومحاضرات	سورية
الجامع فى أخبار أبى العلاء :	محمد سليم الجندى	سورية
النقد واللغة فى رسالة الغفران :	أمجد الطرابلسى	سورية
أبو العلاء ناقد المجتمع :	زكى المحاسنى	سورية
أبو العلاء المعرى :	أحمد تيمور	مصر
رأى فى أبى العلاء :	أمين الخولى	مصر

رجعة أبي العلاء : عباس العقاد
الحياة الانسانية عند أبي العلاء : بنت الشاطيء
مصر
الفقران : دراسة نقدية : بنت الشاطيء
مصر
دار السلام في حياة أبي العلاء : بنت الشاطيء
(نشرته وزارة الثقافة ببغداد)

واسترد أبو العلاء مكاتبه فينا :
الأديب المناضل ، رفض الحياة في عصره احتجاجا على
فسادها ، واعتزلها انكارا لاختلال أوضاعها ؛ وتصدى مع ذلك
لقضايا مجتمعه ملتزما بها من تلقاء ذاته ، لم يحمله عليها سوى
ضميره ، ولا ألزمه بها غير وجدانه الملهم وانسانيته النبيلة المصفاة .
والضرير للبصير ، حجبه العمى عن الدنيا ، وعزلته سجونته
عن الناس ؛ لكن هذه الحواجز لم تعزل وجدانه ولم تسدل الغطاء
على بصيرته ، بل العلم ردتته أرهف ما يكون حسا وأصفى
رؤية ، فكان من أعرف الناس بالناس كما قال .

والمقيد الحر ، باع كل الدنيا ليشتري شرف ضميره ورأيه ،
وانسحب من السباق متنازلا عن كل شيء في سبيل كرامته
وحريته ، وراض بشريته على أقسى ضروب الحرمان ، محققا
بسلوكه العملى كلمة قالها « الشنفرى » الشاعر الجاهلى
الصعلوك : من قديم الزمان :

أديم مطال الجوع حتى أميته
وأصرف عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستفّـ تـرب الأرض كيلا يرى له

علىّ من الفضل امرؤ متفضل

* * *

وانه ليعيش اليوم حيا في ضمائرنا ، يناضل من وراء ألف
عام ليصحح فهمنا للأدب ، ويحررنا من قيم أدبية ورثناها عن
نقاد سلفوا وعصور خلت ، وظلت مسيطرة علينا تحتكم في ذوقنا
للأدب ، وتقديرنا لمنازل الأدباء وأقدارهم .

وسيلظل حيا في ضمائر الأجيال من بعدنا ، ترى فيه أديب
العربية الأكبر الذي استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله
كثيفة داجية ، والذي يستطيع اليوم وغدا ، أن يعلمنا رسالة
الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة .

ويعلمنا معها ، بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال !

وسلام على أبى العلاء !

فہرست

صفحة

الفصل الثالث

فى مفترق الطريق
 رحله الى بغداد

٨١	مناخ العصر
٩٠	حديث الذهاب
١٠٥	فى خضم العاصمة
١١٥	حديث الاياب
١٢٩	موت الام

الفصل الرابع

المرحلة الثانية :

معركة المجاهدة

١٤١	رهين المحبسين
١٦٠	صائم الدهر
١٦٧	السر المذاع
١٩٠	الاديب الحر
٢١٣	خصومة واتهام

الفصل الخامس

نهاية المطاف (تراث وآثار)

٢٢٣	ضجعة القبر
٢٣١	فى منطقة الظل
٢٤٧	انحسار الظلام

صفحة

هذه الترجمة ٣

الفصل الاول

قبل المولد (الورثة)

أجداد وآباء :

٨	تنوخ
٩	بنو الساطع
١١	آل سليمان
١٣	أخواله : بنو سبيكة
				الأسرة :
١٧	الوالد
٢١	الأم
٢٦	الإخوة

الفصل الثاني

رحلة حياة

المرحلة الأولى :

معركة التحدي والطموح

٣٣	الطفل الضربير
٣٦	الغلام الموهوب
٤١	الشباب الطامح
٥٦	ومضات كاشفة
٦٦	موت الأب
٧٦	احدى الراحتين